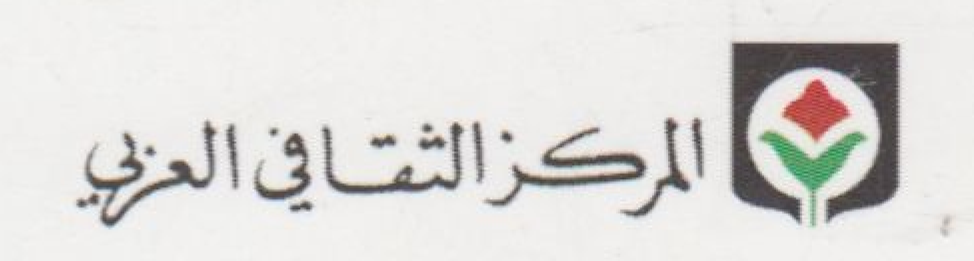
رواية

رينيه الحايك

صلاة من أجل العائلة





صلاة من أجل العائلة

الكتاب

صلاة من أجل العائلة

تأليف

رينيه الحايك

الطبعة

الاولى: 2007

عدد الصفحات: 168

القياس: 14 x 21

ISBN: 978-9953-68-267-4

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

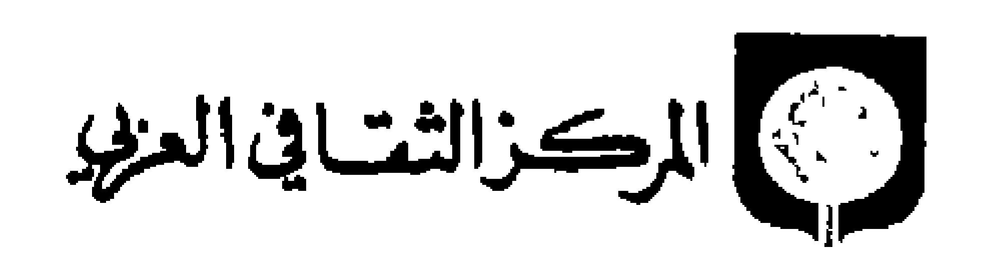
هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 1 961+

رينيه الحايك

صلاة من أجل العائلة

رواية



إلى مروى وربيع

يرنّ الهاتف مرّات. لا أردّ. أقول مخابرة أخرى لابنة أخي. أليس هاتفها؟ أمدّ قدميّ على درابزين الشرفة. هواء آذار يُسقِط زهور الياسمين على وجهي. أغمض عينيّ. أنسى الصور في رأسي. العتمة تشتدّ. الهواء يؤرجح شجرة الصنوبر. طويلة تتجاوزنا حتى تصل إلى الطابق الثالث.

الشرفات كلّها تزدان بشجيرات. وحدها شرفة ناديا، أخت زوجي، جدباء. تقول إنها لن تُبقي الشقّة هكذا مهجورة. تعرضها للبيع. لا أحد يشتريها. غالية وقديمة. الأثاث الموزّع في الصالونات وغرف النوم مغطّى بكتّان أبيض. شاندرا السيريلانكية تعمل ليومين حتى تُزيل غباراً لم يُمسح منذ شهور.

أنام على الكنبة العريضة في غرفة الجلوس. يعاتبني أخي نقولا على نومي هنا. يسأل إنْ كان يزعجني السرير في بيتهم. أشرح له كيف أنّ ناديا قبل سفري أوصتني بالبيت. يقول إنّ البيت هكذا منذ أكثر من خمسة عشر عاماً. هل أنا ناطورة؟ يستاء من ناديا ومن طلبها الغريب. ثمّ أليس البواب هو الموكل بتشغيل البراد ورشّ البيت وتنظيفه كل مدّة؟ نعيد الحديث نفسه كلّما يمرّ بي لنذهب عند أمي. باستثناء اليومين الأوّلين اللذين أقضيهما عند نقولا أخي، أمكث في بيت ناديا وحدي. زوجة أخي تُرسل شاندرا تُحمّلها طعاماً، تطلب منها الغسل أو الكوي

أو الجلي حسب الحاجة. لا أقبل، أقول إنّ الليل طويل، كيف أقضيه دون أن أشغل نفسي؟ حتى التلفزيون لا يعمل. أحياناً ألمح صوراً مغبّشة ترتسم على شاشته فيما أقلّب القنوات. أصوات تتقطّع، أجسام دون رؤوس. أُطفئه. أسمع الراديو. أُبقيه شغّالاً حتى يحملني النوم.

يرنّ الهاتف. صوته بعيد. إنْ أصل إليه قبل أن ينقطع الرنين، أردّ. أقوم على مهل. أبحث عن زر اللمبة. لم أعتد على إيجاده بسهولة. يشعّ ضوء الثريا. رقم نقولا. تسألني زوجة أخي هل أنا وحدي؟ سؤال غريب؟ تقول: أملكِ أعطتكِ عمرها.

متى؟ أسألها.

تقول عند السابعة، أثناء نومها. هكذا أخبرتها الراهبة. الصمت يطول.

أرفض أن يأتي أحد ليأخذني إلى بيتهم. بعد قليل، يكلّمني نقولا. يتفق معي على ملاقاته صباحاً لنتمّ الإجراءات ونأخذ الجثمان إلى الضيعة. يخبرني نقولا إنّ عبدو سيصل ظهراً من السعودية لحضور الدفن.

أبحث بين ثيابي، أجد تنورة وكنزة سوداودين. أكوي التنورة حتى تصبح ملساء كالورقة. صوت مذيع الأخبار يختلط بعجلات سيّارات، بالموسيقى المنبعثة من شبابيكها. النسمات باردة الآن تماماً. الستائر المعدنية تتأرجح وتصفق الجدران بقوّة. الصدأ يُبقيها مسدلة. نفشل في محاولاتنا لرفعها. من الشقة تحتنا يعلو صراخ المرأة. لا تريد لابنها أن يرجع متأخراً. صوته يطغى على عويلها. يصفق الباب خلفه بقوّة، أرتعد جافلة...

لو يكلّمني أنطون، لكنّ الصباح لم يطلع عنده بعد.

يريد نقولا أن أهجئ له اسم عائلة زوجي، بالكاف أم بالغين، يسأل. «كسبار بالكاف» أردّ. يشتكي من أقاربنا الذين لا يستطيعون تولّي أيّ أمر وحدهم. يتصلون ألف مرة لإنجاز شيء بسيط كورق النعي. أهدِّئه مرددة: بسيطة، تذكّر أنهم غير ملزمين بفعل ذلك. كأنه لا يفهم ما أقول، فيعدّد المرّات التي اهتمّ فيها بدلاً منهم بكل التفاصيل المزعجة. يردف دون أن أسأله: «سكتة قلبية، لم تشعر بشيء، ارتاحت المسكينة من آلامها». يغصّ بدموعه.

التفّ بالروب الطويل الذي أجده معلّقاً بإحدى درف الخزانة. رائحته عفن. أبقى على الشرفة حتى تنطفئ معظم الأضواء. أسمع صوت نرد يتدحرج فوق الخشب. يدٌ تصفق الخشب. صوت يحتجّ، كرسيّ يتزحزح بقوّة. الحي يهدأ. تستمرّ زهور الياسمين بالتساقط من على الشرفة فوقي كأنها ندف ثلج.

يقود نقولا بسرعة، تحت أمطار خفيفة. السير قليل في هذه الساعة. ندخل نفقاً. يتحوّل صوت الراديو إلى خشّة مزعجة كأنني في تلك الكوابيس التي لا أعرف فيها أين أنا، هل في شوارع بيروت، أم في كليفلاند؟ أصغيرة أنا أم امرأة كبيرة؟ نقولا يحكي، لا أسمع.

أمام ماكدونالد عاملان يرشّان البلاط ويشطفانه. هل يقدّمون هنا أيضاً خدمة 24 ساعة؟ يحكي عن الكفن المصنوع يدويًّا، عن القفازات الدانتيلا عن... أمّي التي كانت تناديه ما إن يطلّ مؤخّراً: «فرنسيس، أتيت؟» ينسى أنني سمعتها تضيّع بينه وبين أبي. ألم القروح في ظهرها وقدميها هو السبب، يقول الطبيب.

الرجل الضخم الذي يصافحني يبدأ بتوجيه الأوامر إلينا: «قُلْ لها ألا تتأخّر. لِمَ عليها هي أن تُلبسها، هذا عملنا». شجار ينشب بينه وبين

الممرضة. يتدخّل نقولا، يقول إنّ الممرضة صديقة لأمي، وتفعل ذلك بحكم محبّتها.

يدها باردة متخشّبة. فمها المنطبق يخفي شفتيها الرقيقتين تماماً. ألمس جلدها المبقّع بالنمش، أسوّي حاجبيها. المنديل الأبيض يخفي شعرها، أعطي الممرضة المال الذي يضعه أخي في يدي. لا يريد أن أدفع شيئاً من جيبي. يقول إنّه مالها الذي ينفقه الآن على جنازتها.

أذكر الموز الذي قطّعته صغيراً في صحن البارحة. لم ترد فتح فمها. وجبة الأسنان لا تثبت. بقيت في كوب الماء فوق رف الحمام.

آخذ من أغراضها قميصاً سكّري اللون، أذكره منذ كنت صغيرة. قماشه رقيق. ما تبقّى من أغراضها يطلب أخي أن يُمنح لمحتاج.

الرجل الضخم يقود سيارته محمّلاً النعش. تنضمّ إلينا سيّارات أخرى من الأقارب وزوجة أخي وابنته.

الطرقات تبدّلت كثيراً. أكاد لا أذكر إلا أماكن قليلة. كأنّ زلزالاً ضرب الأمكنة. قامت أبنية أخرى عملاقة. وحدها القرى تذكّر ببعض صور قديمة في ذاكرتي. منذ خمس سنوات، كانت هذه الطرقات ضيّقة، لا أذكر أنّ فيها هذا العدد من الأنفاق.

أقف أمام بيتنا، واجهة البناية رُمِّمت ودُهِنّت باللون البرتقالي الفاتح. حبّات المطر تلمع فوق حديد الشرفات. الأباجورات زرقاء غامقة. الطابق الأرضي يتحوّل إلى صالة عرض للتحف القديمة. أرى من واجهاته كنبات قديمة وخزائن عالية من خشب الجوز، فوقها تيجان. الطاولات مطعّمة بالعاج. المكاوي ومطاحن البن النحاسية تحتلّ الرفوف. في حديقته مقاعد حجرية وطاحونة ضخمة. الدكاكين ما عادت موجودة. أبراج ضخمة تقوم مكان البورة. منذ خمس سنوات، كانت البورة موقفاً للسيّارات.

يريد نقولا وعبدو أن آخذ ثلث ما تبقّى من مال التعويض. أرفض. كلاهما لا يفهمان. إنّه التعويض الذي قبضته منذ سنة لإخلاء شقتها، ولي نصيب فيه، يقولان. ألبس سواراً ذهبيًّا كان لها. لم يفارق معصمها منذ كنت طفلة. أحجار الفيروز تتوسّط ورداته الذهبيّة. يقولان «أنت ابنتها هل سترفضين حلاها أيضاً؟». على أيّة حال، لم تكن تملك إلا خاتم الزواج وسلسلة وإسواراً. السوار كبير على معصمي النحيل. أرفعه إلى الزند خشية أن ينزلق دون أن أحسّ به.

آخذ كل صور والديّ بالأسود والأبيض، كذلك الصور القليلة لهما مع أخوتهما. في واحدة من الصور، لا أختلف عن أمّي شكلاً

سوى بالتسريحة. شعرها الطويل يتدلّى إلى آخر ظهرها معقوداً في جديلتين، ترتدي ثوباً بأكمام طويلة.

أذكر حين اتصلت بها بعد تركها بيتها، تهمس كي لا يسمع نقولا بأنّ الأمر لا يعجبها. صحيح أنّها لا تملك ثمن الشقة، لكنّ عبدو قد أنعم الله عليه. فلِمَ لا يشتريها؟ ثمّ ماذا يحصل حين يعود أبي؟ لن يجدنا، كيف سيهتدي إلى أرضنا؟ تسأل. لا تكترث لما يقوله نقولا، ولا تصدّقه. «من سيبالي من الجيران ليعطيه عنوانك»؟ تردّ عليه. كيف سيستدلّ فرنسيس علينا؟ الدنيا حولنا تتبدّل، حتى نحن نضيع الآن في الشوارع».

صور أبي التي حرصت أمّي على تعليقها فوق جدران كل غرف بيتنا، نقلّبها ونعيدها إلى الصندوق، إلا واحدة صغيرة عزيزة على قلبي، يرتدي فيها زيّ الحراسة مع القبّعة. يقف أمام مستشفى الجامعة مبتسماً جامداً أمام العدسة. في الزاوية، بائع كعك. هي الهيئة التي أذكره فيها.

تطلّ صاحبة محلّ التحف، ترمقني بنظرات خاطفة. تبتسم بحذر. وقوفي الطويل يزعجها ربّما. أمرّ ببنايات، أفرح لبقائها على حالتها. أتذكّر بيوت بعض رفيقاتي. لم أَرَهُنّ منذ سفري إلى أميركا. الآن باستثناء بعض الأقارب، لا أعرف أحداً. في التعازي يقترب كثيرون، يعرِّفونني بأولادهم، يدعونني إلى بيوتهم. أنسى الأسماء، أحتار إنْ يبادرني بعضهم: «عرفتني»؟ أرسم ابتسامة ودودة. يتعبني الارتباك. أشتري باقة ورود حمراء من بائع جوّال يقف عند التقاطع.

الطقس يحيّرني بتقلّبه بين الحرّ والبرد. لا أعرف ماذا ألبس. أعاود قراءة رسالتي سالي ورودي رغم قصرهما. لم تقل سالي شيئاً عن وظيفتها الجديدة في الشركة. رودي لا أنتظر أن يخبر شيئاً عن نفسه.

عندما أكلّم أنطوان لا أسأله إن كانا يتصلان به. أخشى أن أحزنه، أفكّر أنهما لو فعلا لن ينتظر حتى يخبرني. آخر مرة تمكّنت فيها من اصطحابهما معي إلى بيروت كانت منذ عشر سنوات. بعدها، ما عدتُ أجرؤ حتى على طرح الفكرة عليهما.

لو أنطوان هنا، أفكّر. أخاف من الليل والنوم. أيقظني كابوس غريب الليلة، قمت. وجلست على الشرفة في البرد، أنتظر طلوع الفجر.

كنت مع سالي ابنتي، هي في الرابعة. أنطوان يقود السيّارة صامتاً على طريق فارغة إلا من الضباب والثلج والمطر. كأنّ البيوت تفرّ من أمامنا كلّما تقدّمنا. البيوت التي نراها بعيدة فوق تلال عالية في الجهة المقابلة لنا. كنّا نوقف السيارة فتلعب سالي عند جوانب الطريق وفي الحقول التي يفور منها بخار الضباب. ينشغل أنطوان بمراقبتها كي لا تقترب من أماكن خطيرة. أمّا أنا فأنجذب إلى مشهد التلال البعيدة. أقول لأنطوان: «انظر ها هي ضيعتنا فوق ذلك الجبل البعيد». يرتفع الضباب عن القمّة فتبين بيوتها البيضاء المروّسة القباب كأنّها كنائس قديمة. ألتفت خلفي، أرى أننا واقفون في مرجة، قربنا بيت هو بيتنا القديم. شيء يعصر قلبي، يقول أنطوان إنه يريد أن يرى بيتنا القديم، هو لا يعرفه. أبحث في قعر حقيبتي. أجد مفتاحاً قديماً صدئاً. أطلب منه أن يقرع الباب قبل أن يجرّب المفتاح. يدقّ الباب، لا أحد هنا. لكنّه حين يضع المفتاح في القفل، ينفتح الباب مشرعاً، وإذا بأبي مرتدياً بيجامته القديمة التي كان يلبسها بعد عودته مباشرة إلى البيت. أراه كأنني لا أذكره، أضمّه إليّ، وجهه كئيب، عيناه لا شيء فيهما سوى الحزن. أقبّل رأسه كأنّه ابن لي. أحسّ بالموت، بالقهر. كيف أنسى أبي هنا عشرين سنة، ليس معه مال وأمي ماتت. ألف فكرة تشغلني، أريد أن أُفرغ

حقيبتي من كل ما أحمل لأعطيه مالاً. أريد أن أخرج لأشتري طعاماً، لكن وجهه يسمّرني مكاني. أشتاق إليه شوقاً يُصعِّب عليّ الكلام. يقول «لديَ طعام» حين يحزر ما يدور في رأسي. في المطبخ أرى برّاداً كان عندنا في طفولتي. يمدّ أبي يده إلى طبق فيه حبّات لوز خضراء ذابلة، يقرشها، كلّها عفن. عمرها أكثر من عشرين سنة، كذلك كلّ ما في البيت، قلبي يخفق، أفكّر أنني أريد الموت الآن، كيف أنسى أبي وحده عشرين سنة؟ أين كانت ذاكرتي، أقبّل رأسه ثانية. دموعي تنزل كبيرة كحبّات بلور متحجّرة تجرح عيني.

أصل إلى البيت فيتصل نقولا، يريدني أن أتغدّى معهم، عبدو سيغادر مساء إلى السعودية. أتحجّج بالتعب. يرتبك. يأخذ عبدو السمّاعة منه، يقول إنّه سيوقّع وكالة عامة تُجيز لنقولا إجراء حصر الإرث.

«أي إرث؟» أسأله.

أبي يملك قطعة أرض مناسبة للبناء في الضيعة. عندما أصدرت الدولة شهادات وفاة للمخطوفين، رفضت أمي استصدار واحدة. لذلك تأخّر الأمر. يحكي عن مشروع لبناء شقق، فالمنطقة تزدهر بسبب الاصطياف ولديه زبائن خليجيون مستعدّون أن يشتروا على الخريطة. أقاطعه مبدية موافقتي التامّة على توقيع الوكالة. أُسكته حين يحكي ثانيةً عن الأرباح. ثمّ يقول إنّ عليّ أن أُبارك له فابنته كريستين أنجبت صبيًّا وهي بخير. «صرت جدًّا إذاً»، أقول ضاحكة.

يتكفّل الناطور بكل الإصلاحات في البيت. أردّ على كل ما يستشيرني فيه: «اختر الأفضل». السخّان يتعطّل كذلك الحنفيات والكهرباء في غرف النوم. يمدح نوعية السخّان الجديد وكيف هو مدعّم بطبقة مزدوجة من النحاس ويتّسع للكثير من الماء، «بإمكان عائلتي كلّها أن تستحمّ» يضحك ناظراً إليّ بعينه الصغيرة بينما العين الثانية تبقى متّسعة جامدة، حتى لون البؤبؤ فيها مختلف عن الأخرى. لا أستطيع أن أمنع نفسي من التحديق فيها متسائلة إن كانت زجاجية. عادة تغيظ أنطوان. يقول إنني أُطيل التحديق في الناس. أُربكه حين أفعل ذلك.

أحاول إصلاح كلّ شيء، قبل وصوله، يعجب نقولا كيف أثق بالناطور لأدعه يقوم بهذه التصليحات. يضحكه الأمر. ينسى أنني لا أعرف أحداً. يحكي الناطور عن بيت والديه في تلّ الزعتر، صحيح إنه كان صغيراً لكن الخير كان كثيراً. لا أدري عن أيّ خير يحكي. أذكر وجه أمّي، كلّما أطلق عدد من المخطوفين والمسجونين. كانت تأخذني معها، نجول بين المراكز، لا يؤلمها زجر المسلّحين وتحذيرهم لنا من الدخول عليهم هكذا.

عندما يسقط تلّ الزعتر، لا تنتظر أن يتصلوا كما وُعدت، تجرّني معها في شوارع لم أطأها. نقف متأمّلتين أرتالاً من الأطفال والنساء.

الوجوه تُبكيها. أشدّها من كمّها، أردّد بحزم: «يلا نرجع، إذا عرف نقولا سيزعل» لكنّها تستمرّ في وقوفها حتى تعتم. مرّات كان يشتدّ القصف، فيجنّ نقولا ما إن يرانا عائدتين، لا تردّ على قسوة كلامه كأنها لا تسمع. يقول إنّه متكفّل بالموضوع، لديه معارف في الكتائب سوف يبلّغونه كلّما جدّ جديد. تزمّ شفتيها كأنها تبلعهما، ترفع بصرها إلى صورة أبي الكبيرة. عندما يعنف كلام أخي تقول: «الرأي رأيك يا ابني، أنت رجل البيت الآن» عبارة لها وقع السحر على نقولا.

لم يكن كعبدو، ولم يتخرّج مثله مهندساً. درس المحاسبة ولم يجد عملاً بعد. بما أنّ عبدو في السعودية يفرحه أن تكون الكلمة كلمته. منذ يخطب عبدو ابنة مقاول لبناني في السعودية تقلّ اتصالاته، حتى المبالغ التي يرسلها تتباعد. لم أسمعها تتذمّر، عبدو لا يخطئ في نظرها. حين يشحّ المال تعمل في دير الراهبات طبّاخة. تصطحبني معها لأساعدها. أتسلّل لأرى التلاميذ في القسم الداخلي.

أعجب من جلوسهم الهادئ في ظلّ شجرة، أو من لعبهم التنس أو كرة السلة. كيف يتركهم أهلهم والحرب دائرة؟ حتى لو تهدأ شهوراً تعود أعنف فأعطّل وأنسى المدرسة والفروض.

أتعلّم غسل الخضار وقطعها، وإعداد كل أنواع اليخنة. في آخر النهار، تحمّلها الراهبة بعض الفضلات أو بعض الخضار المقطوفة من حديقتهم الواسعة.

الراهبات يبادرنني بالفرنسية كما يفعلن مع كل تلاميذهم . لا أردّ. تسارع أمي «تتعلم الإنكليزية، والدها فرنسيس يحبّ أن تتعلّم في الجامعة الأميركية طبيبة». ينظرن إليّ كأنني أميّة. العلم هو التكلّم بالفرنسية بالنسبة إليهنّ. أتمرّد أحياناً على مرافقتها. حين ترضخ، أخاف

عليها من العودة وحدها. مع مرور الوقت، كان عدد التلاميذ يقلّ حتى صار لا يتجاوز العشرة. صارت توكل إليها أعمال أخرى غير مطبخية. كالكوي أو القيام بأعمال الخياطة ورتو الثياب وغسل الأدراج، أذكر أنني صرت أمرض كثيراً فتروح وحدها. صحيح أنني أتحسّن خلال النهار، لكن الوهن وألم الرأس كانا يلازمانني تقول أمي إنّ السبب هو قلّة التغذية. تطعمني رغماً عني، تضع في صحني كل اللحم الذي في اليخنة.

كان نقولا ينام غالباً في المركز مع الشباب. لا يقبل مالاً من أمّي. ترجوه. يقول إنّه يقوم لهم ببعض الأعمال ويعطونه ما يكفيه. سيبقى هكذا حتى يجد عملاً ثابتاً له في بنك عودة بعد سنتين.

أذكر وجهها، شعرها المغطّى دائماً بمنديل، عادة تكتسبها منذ عملها عند الراهبات. كان أبي يحبّ طبخها «نَفَسك حلو يا روز» يقول.

الأحد، يوم عطلته، لا يحبّ المشاوي كالجيران، تطبخ الملوخية أو المغربية أو رقبة الغنم المحشيّة. أكلاته المفضّلة... يشرب كأساً واحدة من العرق مع التبّولة، تشرب مثله. تسكر من شرب نصف الكأس. يردّد ضاحكاً من مرحها المفاجئ: «تسلم يداك يا روز». فقط حين يأكل سمكاً مقلياً، يشرب كأسين من العرق، يحمرّ وجهه، يجلسني على ركبتيه، يلامس شعري الطويل، يهمس في أُذني «ابنتي الحلوة الدكتوره». كلّ يوم يحمل لي بقلاوة أو شوكولا أو ملبّساً، ولأمّي وروداً، يتركها المرضى بعد شفائهم. توزّعها على غرف البيت. لا يحكي عن الموتى في المستشفى. يحكي عن الذين ينجون من الموت، والذين يُنجبون فيوزّعون الحلوى حتى على من لا يعرفون.

يخبرني الناطور إنّ زوجته لبنانية من الجنوب من قرية «خربة سلم»

وكيف يغضب أهلها منها لأكثر من خمس سنوات لأنّها تزوّجت فلسطينيًّا. عندما رأوا أنه يحفظها في عينيه ويعمل ولا علاقة له بالتنظيمات رضوا عنه. أغالب فضولي. أكاد أسأله عن قصّة عينه المطفأة. يصعب عليّ الكلام معه. إذ لا أدري إن كان ينظر إليّ أم لا.

أوّل مرة سافرت فيها، لم أزر لبنان إلا بعد سبع سنين. سالي ورودي كانا صغيرين. خافا من أمي. لم يفهما كلمة مما تقول لكنهما بسرعة تعلّما بعض الكلمات من الأولاد. صارا يستجيبان لها، تضمّهما فلا ينفران، لكنهما استمرّا يعاملانها كأنّها غريبة.

أذكر حرَجي فيما أكبر. خجلي من عملها، من يديها المعروقتين. من لهجتها القروية التي لم تتبدّل. من ثيابها. من كلامها عن أبي كأنه عائد أوّل المساء.

«حبيبة قلبي» تقول ما إن تسمع صوتي، ترفع صوتها كأنّ عليها فعل ذلك لأسمعها في أميركا البعيدة. تخاف دائماً عليّ من أن أدفع الكثير لقاء المخابرة، لا تنفع كلماتي في طمأنتها. المال الذي أرسله لها من حين لآخر يخجلها. تظل ترجوني ألّا أفعل.

يقول إنّ السخّان جاهز للاستعمال فأكبس الزر لتسخن المياه. بعد الظهر سيبدّل الحنفيّات ويكشف عن الكهرباء. زخّة مطر مفاجئة تنزل قوية فيما الشمس ساطعة. أجد صعوبة هنا في ارتداء ثيابي. أقضي يومي ملتفّة بالروب القديم، لا يحبّ أنطوان هذه العادة، يقول إنّني أبدو مريضة بائسة حين أقضي يومي في ثياب النوم. حتى أيّام العطل، أرتدي ثيابي ما إن أستيقظ.

يرنّ التلفون لخامس مرة اليوم، أعلم من الرقم أنّها مخابرة لابنة أخي، لا أفهم ما حاجة فتاة في الثانية عشرة لخليوي؟ أرقام مختلفة،

رفاقها في المدرسة؟ عمّ يتكلّمون؟

عندما سيأتي أنطوان، سيتصل بثلاثة من أصدقاء الطفولة، سنجول كالعادة كالسوّاح وسنسهر في المطاعم، ندعو ونُدعى. نتعرّف على الآثار، نتصوّر في بعلبك والأرز وعين مرشد وصنين والباروك... نشتري تذكارات، نزور جديه وعماته وخالاته. حين أفكّرُ بذلك، أحسّ بتعب مباغت. عندما يتوقّف المطر سأستحمّ وأذهب مشياً عند نقولا. عليّ أن أعتذر من هذه الصغيرة التي صادرت هاتفها.

الصور التي نروح نتأمّلها، تكسر الصمت بيننا. تشاركنا ابنة أخي الضحك من هيئاتنا القديمة. تشير إلى أنطوان في صورة من عرسنا، تستغرب شعره الطويل، نحوله. تنقّل نظراتها بيني وبين الصورة. أسألها «تبدّلت كثيراً، أليس كذلك؟» تبتسم، لا تردّ. لا أحسّ أن أنطوان مختلف. صحيح أنّ وزنه زاد لكنه لم يفقد لياقته.

أوّل مرة التقيته كانت خلال الاجتياح الإسرائيلي، ينزل مع عائلته عند أقاربهم، جيراننا. الناس يتدفقّون من الناحية الغربية، يجلسون حتى على سطوح السيّارات وفي صناديقها. وجوه فَزِعة تكثر على مدار النهار. انفجارات تصدّع قلوبنا، ليل بيروت كأنه نهار، تشقّ سماءه القنابل المضيئة ونيران القذائف. تسقي أمّي الهاربين ليموناضة أو تمدّ لهم قناني ماء. أغضب منها محتجّة: «لا تعرفينهم، لم لا تدخلين إلى البيت»؟

أحبّ أنطوان حين أراه، لا يشبه أخويّ ولا الشباب حولنا، لا يتكلّم مثلهم، حتى ثيابه وإيماءاته مختلفة. لا يخجل، ينظر إليّ، يسألني عن دراستي، عن أخويّ، ويحكي عن جامعته التي تخرّج منها. أتذكّر حلم أبي أن أدخل هذه الجامعة وأتخرّج طبيبة. لا أقول ذلك. أخشى أن أبدو خرقاء إن تكلّمت طويلاً. كأنّهم كلّهم من كوكب آخر، أختاه،

أمّه، والده. يخبرني لاحقاً إنّه ظنّني لا أحتمله وأنفر من حديثه. لم يلزم أمي وقت لتلاحظ ارتباكي. أعلم ذلك من ملاحظاتها وأسئلتها عن عائلته وكيف أنهم من عالم آخر لا يشبهنا، تقول كأنها لتذكرني أنّها يتيمة، عاشت طفولتها تخدم الناس. أمتنع عن مكالمتها، لكن ما إن أراها تجلس في ركن الغرفة تصلي أمام رف عليه صورة أبي وصورة العذراء حتى أخجل من قسوتي. لا تعاتبني، تتصرّف كأنّ شيئاً لم يكن.

والدة أنطوان تعاملني بجفاء واستعلاء ما إن تلاحظ اهتمام أنطوان بي، معاملة لن تبدّلها سنين زواجنا ولا بعدنا عنهم. حتى وهي عجوز لم أرها يوماً دون تبرّج أو دون تصفيف شعر. بعد عشرة أيام من سكناهم عند جيراننا، تستأجر عائلته شاليهاً في جونيه وتنتقل. بكيتُ وحدي. ليالي لا أنام فيها. لا آكل. أمكث في ثياب النوم. تحزر أمّي ما بي كالعادة. لا تحاول استدراجي. قلقها يتركّز على صحتي، على نحولي الشديد الذي تظهره أكثر قامتي الطويلة.

عندما أراه داخلاً بيتنا بعد أيام من انتقالهم، تسمّرني المفاجأة. أقف دون كلمة. أنسى هيئتي العليلة. لا أذكر أنني نطقت بأكثر من جملة على دعوته إلى حفلة على البيسين. يقول «ترافقين أولاد خالتي جيرانكم» كي يشعرني بألفة. أحتار ماذا أرتدي، لم يسبق لي أن حضرت حفلات كهذه. ألجأ إلى نقولا الذي يرافقني لأشتري أوّل مايوه وثياباً أخرى. لم تجد أمي كلاماً تقوله بعد أن أريتها الثياب سوى «ناس بتموت وناس...» لا تكمل جملتها، أفقد صوابي، أرمي الثياب أرضاً، أقول إنّها بلا إحساس، تنسى أنني صغيرة، تريد مني أن أدفن حيّة لأنّها يتيمة الأب، لأن أبي خُطِف، لأنّ هناك حرباً وقتلى، ألستُ مثل كل الفتيات في عمري؟ أسألها إن كانت تريدني مثلها بلا روح وبلا حياة... أراها على

مدار أيام صامتة، تتحرّك على مهل كأنّها لا تريد أن تكون مرئية، لكنّ غضباً في داخلي كان يفور كالبركان، أراها فيحتدم ثانية. ستة أشهر بعدها، نتزوّج ونسافر إلى أميركا. جمل قليلة تتبادلها أمي مع أنطوان، لم تختلف على مرّ السنوات، كلّها في حدود المجاملة الاجتماعية، المجاملة التي لا تجيدها. أردتُ أن أهرب منها إلى مكان بعيدٍ جداً، لكن أميركا لم تكن بعيدة كفاية.

أعجب من كميّة الصور التي كانت لديها. كثير منها لا أذكر حتى متى أُخِذَت لنا وفي أية مناسبات. هناك صور لنا أكثرها في الشعانين أو عيد الميلاد أمام الشجرة. يسألني نقولا أن أختار منها ما أريد. يقول إنه احتفظ من أجلها بصناديق وضعها على التتخيتة. لم يرد أن تزعل أكثر خصوصاً بعد مغادرتها بيتها. تركها توضّب كلّ ما تريد. لم يناقشها. معظم الأغراض يتعلّق بأبي. بدلاته. أحذيته. أو شراشف طرّزتها وأنا في المدرسة، رسوم وأوراق علاماتنا، مراويل لبسها كلّ منا أوّل يوم في المدرسة، أغطية حاكتها لنا في طفولتنا الأولى. لا أدري كيف تدبّرت أمرها لتجيد الطبخ والخياطة والتطريز والرسم على الأقمشة. أعلم على الأقلّ أنّ ما تعرفه من أمور الطبخ يعود إلى سنين خدمتها الطويلة في البيوت.

كانوا يضعون لها طبلية خشب لتقف عليها وتطال المجلى. في الثامنة من عمرها تنتقل من بيت لآخر، لا تصمد لأكثر من أسبوع، يضيقون بها وببكائها. «أريد أمّي» تبكي كلّ مساء. عبثاً تهدّئها أمّها، تركض خلفها، لا تعود أدراجها إلا بعد ألف تهديد ووعيد. «من يطعمك أنت وأختك؟ يلا اذهبي» ترفع يدها كأنها تهمّ بصفعها.

المرأة الفرنسية التي تسكن حي الزيتونة هي الأكثر لؤماً. طويلة، حادّة النظرات، لديها ابن رضيع لا يتوقّف عن البكاء، تشغلها حتى بزوغ الصباح. رجال، نساء يدخلون، يشربون، يتشاجرون أو يتضاحكون. تنشغل في إعداد الطعام لهم، تخشى ممازحتهم، يتعثّرون في كلامهم والسيدة الفرنسية تنهرها بلغة لا تفهمها. تنام النهار بطوله. تنهض أمّي ما إن يفيق الصغير، تحمله خشية أن يوقظ أمّه، تحتار، لا يسكته لا الحليب ولا تغيير حفاضاته ولا الهدهدة. تتذكّر تلك الصفعة القوية على خدّها، «تقرصينه يا ملعونة؟» تصرخ بها. تهرب ملتئجة إلى واحدة من قريباتها تخدم في الحي. تجرّها من يدها الصغيرة، تدقّ باب الفرنسية بعنف، تشتمها «يا ابنة الحرام، ألا يكفي أنك عاهرة وتضربين أيضاً فتاة يتيمة؟» لأوّل مرة يدافع أحد عنها لذلك لم تزعل لأنها أكلت عليها أجر الأربعين يوماً.

العائلة الوحيدة التي تشعر في كنفها بالأمان هي عائلة «اسطمبولي». كانوا يسكنون وادي أبو جميل، بيت كبير عالي السقوف، أرضيته من رخام. لديهم ابنتان. الصغرى هاجر تكبرها بسنتين والبكر إيستير في الخامسة عشرة من عمرها. تذكر الخياط الذي كان يأتي إلى البيت الكبير، يأخذ مقاسات السيدات لخياطة ثيابهن كلّها بما في ذلك الداخلية منها. تصرّ أمّي على سروال داخلي يصل إلى تحت ركبتيها، تخشى أن تظهر ساقاها عندما تنحني أو تركع لتمسح الأرض. رغم غرابة عاداتهم. أجلسوها إلى طاولتهم، صحيح أنّها تخجل من الأكل في حضورهم، لكن شيئاً في حنو الأب يؤنسها ويساعدها على قهر دموعها أو تأجيلها. يناديها «روزي» أو ابنتي. يصطحبونها معهم إلى سينما ريفولي. تختبئ بهاجر أوّل مرة ترى الناس يتحرّكون على تلك الشاشة الضخمة. تخبرني مرات عن غزل البنات، عن طعمه القديم، عن

الترمس، لم يسبق لأحد أن انتبه لها أو اشترى لها أشياء كما يفعل يعقوب اسطمبولي.

يوم السبت، وحدها تعدّ الطعام، تشعل الشمعدانات، تعجبها هذه الطقوس. لم يكن أحد يمارسها في البيوت الكثيرة التي تنقّلت بينها. تذكر بيتاً جميلاً يطل على جنينة الصنائع. لكن الشغل كان كثيراً، يداها تتورّمان من غسل الشراشف وفرك الأرضية. المرأة مهووسة بالنظافة، تنسى أنّ روز لم تتجاوز الثمانية أعوام. كل همّها النظافة. أمّا الطعام فلا عناية في إعداده. تسهو عن إطعام روز. تبقى أياماً بطولها دون طعام. عندما تزورها جدتي تسألها «يا خوتا لِمَ تبكين؟ أرحل إنْ لم تتوقّفي». تجيبها: «يا أمي جوعانة» تأخذها من يدها، تبيتان عند أقارب. تنام متشبّثة بثوب جدتي. في الصباح، تأخذها إلى بيتٍ آخر.

ربّما تتعلّم التطريز لاحقاً. في الملجأ لعب ورق وحياكة صوف، أما أمّي فتنكب على شرشف أبيض، تطرّز الأشكال المتناغمة التي رسمتها بعناية عند حوافه، تبعده، تنظر باستحسان ثم تكمل كأنّ لا شيء ولا أحد حولها. لم آخذ عنها شيئاً، كنتُ أقول براحة. يلزمني زمن لأنتبه إلى أنني ورثت عنها أشياء وأشياء.

كل يوم أرجئ ما عزمت على فعله، لا أشتري الأجبان الفرنسية ولا النبيذ الأبيض الذي يشربه أنطوان مع الدجاج بالصلصة البيضاء. أيّام قليلة ويأتي.

عندما يسافر إلى ولاية أخرى حتى ليومين، يعتاد أن يجد بانتظاره طعاماً يحبّه، أو شرشفاً جديداً للطاولة، أغطية مطرّزة للسرير، زهرية رسمت عليها، أو لوحة مصنوعة من زهور مجفّفة. مرة صنعت إطاراً للساعة مقسّماً إلى مربّعات ومستطيلات فيها معظم أنواع الحبوب الصغيرة المجففة. قد لا ينتبه. ليس أمراً استثنائياً بالنسبة إليه، أسأله: «انظر، ألم تلاحظ شيئاً متبدلاً أو جديداً؟» يجيل بصره سريعاً، يجيب «لا» مغادراً الغرفة. إذا كان مزاجه جيّداً، يقوم بجهد. يدلّني على تماثيل أو إطارات أو تحف مضى على وجودها عندنا سنوات بعيدة. رغم ذلك أحبّ تحضير هذه المفاجآت الصغيرة. في بداية زواجنا، كانت عائلات عمومه المستقرين في أميركا منذ عشرات السنين تثني على صبري في التطريز، في صنع لوحات مبتكرة، ليس من النبات فقط، بل من الصحف والمجلات، أخشاب مكسورة، عيدان ثقاب، أو خيش، بقايا أقمشة أرسم فيها مشهداً طبيعياً لحقول وبيوت وسط غابات أو لأطفال صغار يلعبون.

أصدقاء وأقارب يشترون أعمالي، لكن عندما يقترح عليّ أنطوان أن أجعل من ذلك مهنة وأفتح محلاً أرفض وأتوقّف حتى عن تقديمها كهدايا.

الأمسيات عذبة في أواخر آذار، أشرب البيرة. طعمها سلس لا حدّة ولا مرارة فيه. أفضّلها على الأميركية ذات الطعم اللاذع. يعتاد نقولا أن يزورني ويستمتع مثلي بالبيرة والفستق عصراً. نجلس متجاورين، نحكي عن كلّ ما يخطر ببالنا. ما إن يبدأ الحديث عن أمّي، أبدّله بسرعة قبل أن يتهدّج صوته وتختنق الكلمات في حلقه.

في طفولتنا، كانت الكلمات قليلة في بيتنا خصوصاً بعد خطف أبي. زوجي أنطوان يلاحظ ذلك. يزعجه ألا أُحدّث، أن نجلس إلى طاولة الطعام، لا حركة إلا صوت الطعام نلوكه بحذر خصوصاً بعد رحيل سالي ورودي عن البيت.

يشكو نقولا من ضغط تكاليف الحياة عليه. صحيح أنّ لديه بنتاً واحدة، لكن أقساطها المدرسية غالية، كذلك إيجار بيته الجديد. أسأله لماذا لا تشتري بيتاً، إذ له الحقّ بقرض بفائدة قليلة. «كم تظنين سعر بيت كالذي أسكنه؟، على الأقل 350 ألف دولار».

لم يتزوّج نقولا إلا حين شارف على الأربعين. ظننت أنه سيبقى أعزب ملازماً لأمي.

عندما يضحك، تختفي عيناه، تغوران إلى داخل، ويتشردق ساعلاً دون توقّف. ينتقل إليّ فرحه فأضحك كما لم أفعل أبداً. الفارق بيننا في العمر يختفي الآن كأننا من جيل واحد، لا تفصل بيننا ثماني سنوات ، شعره الأبيض يضفي على قسماته رقّة وعذوبة تذكّرني بأبي.

يسألني عن حياتي، كأننا افترقنا منذ أسبوع لا من ست وعشرين

سنة. كأنّ ما نفعله في الأماسي استئناف لحديث انقطع منذ لحظات فقط. يقول إنّ أمي ثقلت همّتها حين كانت تعيش في بيته. تقع ما إن تغادر السرير أو تدخل الحمّام. تمتنع عن الأكل طوال النهار، لا تفعل إلا حين يأمرها مساء بعد عودته من العمل. لا تقبل مساعدة الخادمة ولا زوجته زلفا، هي من يطلب الدخول إلى مأوى عجزة، يقول. بانت تجاعيد جبهته العريضة: «لم يكن عليّ أن أقبل لكن خلافاتي مع زوجتي وابنتي أفسدت حياتي».

أخفّف عنه، آخذ الكلام إلى مكان آخر. أسأله مرافقتي في عطلته إلى مركز تجاري لأشتري ثياباً إذ لم أحضر معي إلا كنزات، الطقس بدأ يصير حاراً. ينشغل بسرعة في ما أطلبه. يصدّق. «لِمَ لا أصطحبك الآن، المحلات لا تقفل في سنتر الABC قبل العاشرة».

قد تتصل زلفا لتخبره بوجود ضيوف عنده وتطلب منه شراء طعام العشاء في طريقه إلى البيت، ما يضع حدًّا خاطفاً لزيارته. لا أحد مثله يشجّعني على المزاح والكلام. لم يسبق أن أضحكت كلماتي أحداً مثله. الشقق كلها تسمع ضحكاته وسعاله.

منذ متى لم أكن وحدي؟ دائماً كان هناك أحد. سالي ورودي أو كلاهما. أنطوان. عند تأسيس الشركة، يسافر أنطوان لأسابيع إلى الصين وكوريا واليابان وسنغافورة، بلدان بعيدة. يحمل من سفرياته هدايا، أواني زجاجية، مزهريات، أقمشة حريرية. الصور التي يأخذها يحتفظ فيها بألبومات للشركة. كلها بضائع يتمّ استيرادها بعد دراسة الأسواق. أشياء لا أفهم فيها. بعد أن تتوسّع الشركة، ويدخل شركاء جدد إليها، تقلّ سفرياته إلى خارج الولايات، أعتادُ على مفاجآته. كأن يتصل بعد

الظهر ليطلب مني تحضير حقيبته، سفر ليومين أو لثلاثة. أن أشكو وحدتي في غيابه، أمرُ يزعجه.

عند سياج المرجة خلف بيتنا أزرع لوبياء وفاصولياء عريضة. أزرع أنواعاً مختلفة من الحبق والمردكوش. كلمّا تهبّ نسمة، يتضوّع الهواء بعطورها، تتبدّل الزراعات بتبدّل المواسم. أشتري مجلات عن البستنة، أبحث عن بزور لخضار لم أذقها سابقاً، لثمار آسيوية. لا أهتم للاختلافات المناخية.

رغم كثرة البعوض، كثيرون من زوّارنا يبدون رغبة في الجلوس على الشرفة المسقوفة المطلّة على المرجة. يسألون عن أنواع الأزهار والخضار وكيفية زرعها. عندما يذهب الحديث إلى تلك الناحية، يسكت أنطوان مستدرجاً الزوّار بدعابة.

صار يأتيني بأنواع من البزور يوصي عليها من الصين. أنبت نوعاً غريباً من الشاي المشهور بقدرته على التنحيف. مذاقه دبق، كأنك أكلت لتوك ثمرة فجّة. لا يشبه ما نعرفه من الشاي لا في اللون ولا في الطعم. لكنّ كل امرأة تزورنا تشرب منه، أو تحمل شتلة صغيرة.

مع الوقت أشعر أن المرجة لم تعد لي. اجتاحتها نباتات أنطوان. أكتفي بأزهار وبورود كتلك المنتشرة في كل الحدائق حولنا.

«تضجرين بسرعة، لا تثبتين على حال» يقول أنطوان، أو يتّهمني بالعزلة، وإلا كيف أفسّر عدم قدرتي على مصادقة كل أولئك النساء اللواتي يملأن سهراتنا؟

عندما تسجلتُ في الجامعة، أبقيت الأمر سراً لشهور. كان يُمتعني أن أتسلّل من بيتنا الفارغ كل صباح كأنني أقوم بمغامرة سرية، تخصّني وحدي لأوّل مرة. لا أحد يعرف. رغم فوارق السن، لم أجد صعوبة في

الكلام مع عدد من زملائي. مع الوقت أشاركهم غداءاتهم، جلساتهم في المكتبة، أبحاثهم، أشرب معهم، أسهر في الحانة، أحب دعاباتهم، أثمل مثلهم، أقود فيما الموسيقى تصخب في أذنيّ ورأسي. أقول لسالي المستقرّة في واشنطن عن دراستي، تكمل حديثها كأنها لا تسمع، تحكي عن صديقها الذي حظي بوظيفة جيّدة وكيف أنها حين تتخرّج قد تجد بدورها فرصاً جيدة، لِمّ لا وعلاماتها عالية في مواد التسويق والدعاية. لا تدري إن كانت ستأتي في عطلة الميلاد، تقول منهيةً مخابرتها.

يحبّ أنطوان أن تعمل سالي معه. لكنّها لا تريد. تظنّ أن فرصها في الترقي أفضل بعيداً عن العائلة. ثم إنها مرتاحة حيث هي، لا تريد أن تفسد علاقتها بصديقها وتبتعد للعمل في كليفلاند. رودي منذ صغره تستهويه السينما والتمثيل. شجاره مع أنطوان يدفعه إلى مغادرة البيت. يذهب سنة، يسوح في أوروبا. يعود ليدرس الإخراج. لا يتصل إلا في أوقات يعلم أن والده يكون فيها خارج المنزل. ينتقد أنطوان لباسه، الأقراط في أذنيه، نمط حياته، صديقاته المستهترات، يشتعل أنطوان ما إن يراه. ينسى في لحظة شوقه إليه. تضيع هباء أحاديثنا حول احترام خيارات أولادنا. شجارات تكسر قلبي في كلّ مرة.

يفرح رودي ما إن يعرف أنني عدتُ للدراسة. يصوّرني أقرأ مقلبة أحد المراجع الضخمة. يصوّر الأولاد في الحدائق قربنا يطيّرون طائرات ملوّنة. المرجة والضوء يطلع عليها، الغزلان الصغيرة المتسللة لتقضم البندورة الصغيرة عند السياج. يريني آلاف الصور التي التقطتها كاميرا الڤيديو التي يحملها. «أريد أن أرى عينيك» أقول محتجّة وأنا أراه منشغلاً مجدداً بتصوير كل شيء، النمل الكبير الذي يسير خطًّا طويلاً

محمّلاً بالقش، دوّار الشمس المائل نحو الضوء. تتعبني هذه العين التي تلاحقني واجمة، شاردة، منغمسةً في أعمال بيتية. أرفع يدي مخفية عدستها. لا يقبل أي مال مني مهما أحاول. يقول إنه لن يأتي إن أصرّ عليه هكذا. ثم إنه ليس طفلاً صغيراً.

أنظر إلى شعره الطويل، إلى لحيته التي أرخاها، إلى قامته المنحنية، ولا أرى إلا وجهه أوّل مرة حملته فيها بين ذراعي.

يوقظني الهاتف. النور قوي في الغرفة. العاشرة والربع. منذ متى لم أنم حتى هذه الساعة؟ صوت حماتي. تريد أن تأتي مع زوجها لتعزيتي. يكاد لساني يزل فأقول: «لِمَ وقد فعلتما بعد الدفن؟»

أعاتب في سرّي أنطوان، هو من أعطاهما رقمي. منذ شهرين، استقرا في لبنان في شاليه يملكانه منذ الحرب الأهلية. يتنقّلان بين أميركا ولبنان على مدار السنة. أعجب من قدرتهما على تحمّل مشقات السفر، عبثاً أحاول تأجيل الزيارة إلى ما بعد الظهر. أرتمي على السرير: أكرّر أن الزيارة سوف تنقضي. في أقل من ساعة قد يرحلان. ألبس بسرعة. أنزل إلى الدكان. أشتري بنًّا ممزوجاً بحبّات الهال كما تحبّه، وبسكويتاً مالحاً وستاً من علب البيرة.

أفكّر فيما يجلسان على الكنبة قبالتي، أنّ بإمكاني السكوت، بإمكاني ألا أبذل جهداً لمحادثتهما. ألستُ الفتاة اليتيمة الآن؟ أشدّ على يديّ. أغضي لأريح عينيّ من هيئتهما. لا أزال تلك الفتاة المرتبكة نفسها. تسألني عن أخويّ. لا تسمع ردّي. تروح في حديث عن معارف وأقارب، عن غياب الرقي في سلوك الناس، عن الثراء الحديث المقرون بالسوقية والتفاهة. تُبدي استياءها من كل شيء. يوافقها زوجها

كعادته. تمتنع عن البسكويت. تقول إنها منذ زمن تبتعد عن هذه الأطعمة، تسترسل في شرح مضارها. تقول إنّ الطبيب فوجئ بقوّة قلبها. تملك قلب فتاة في العشرين، قال لها. تدعوني إلى الشاليه. «كما تعلمين كبير وفارغ. لا أحد في الطابق العلوي» أتحجّج بناديا، ابنتهما. وبما طلبته مني بشأن بيتها. لا تسمعني أيضاً. تقف بقامتها العريضة. زوجها قليل قربها وصغير. وجهها مرسوم بدراية. تغيب عن صفحته الانفعالات. البودرة الكثيفة تُبديها كجثّة.

أتذكّر أمّي. قالت: «أريد لحماً بعجين». أفرح. أمي تطلب شيئاً أخيراً. لا أسأل أخي لِمَ هي مقعدة الآن. دخلت المأوى تمشي على قدميها. بعد أسبوع، تعجز كلياً عن السير. حتى إلى الحمام. أقطع اللحم بعجين إلى قطع صغيرة. يتراقص طعم الأسنان في فمها. تلوك القطعة لوقت طويل. أسمع طقّة الأسنان. ذقنها يرتجف. من الممر، تفوح رائحة بول لا تُخفيها المطهّرات. أغلق الباب. تنظر بحذر حولها بينما تمضغ مخفية فمها بيدها. «هل هناك فتات، ستزعل الراهبة؟» ترتعش يداها، وهما تتلمّسان الشراشف، تتأكّد من نظافتها. بعد ثلاث لقم تشبع. تدعوني لآكل: «حرام يا ابنتي، كل هذا الطعام! كلي».

تغفو. يوقظها ألم القروح في جسمها. تجفل. تفتح عينيها. لا تراني. لا أحد معي. «ماما هذه أنا، جئتُ لأراك، قومي ماما». أمسك بيدها. أصابع طويلة، أظافر بيضاء جميلة. عروق يدها الزرقاء بارزة كلّها. تنتزع يدها، تُمسك طرف الشرشف الأبيض كأنّها تهوي إلى وادٍ بلا قعر. لا تنفع محاولتي في إيقاظها. باليد الأخرى تشدّ قضبان السرير الحديد.

تقول حماتي سترسل السائق غداً، إذ دعت أقارب على العشاء، هكذا أغيّر جوًّا وأبعد عني الحزن كما أنام عندهم. الطقس صار صيفياً، هواء البحر منعش. أردّ بـ«لا» تُفاجئها في حزمها. لا تضيف بعدها كلمة.

من باب الشرفة المفتوح أسمع خطواتهما، أبواب السيّارة تنغلق ثم تبتعد أخيراً.

الغضب يزيد شعوري بالحرّ. أخلع ثيابي السوداء. ألبس قميصاً قطنياً واسعاً. أشرب البيرة جالسةً على بلاط الشرفة. برودة حلوة تسري في أطرافي. الهواء يحمل روائح الفلافل والمناقيش من محلات قريبة. رائحة اللحم بعجين أقواها. لكنه ليس لحم غنم كما تحبّه أمّي. قليلة هي المرّات التي رأيتها تأكل فيها مثلنا. لا تظهر نهماً. تأكل قليلاً كعصفور. يدها تُخفي فمها على الدوام.

أطرد صورتها في الفراش. ضئيلة، منديل قطني مطرّز الحواف يغطّي شعرها الأبيض. أردتُ أن تحضر خالتي. قال أخي نقولا إنّه لا يعرف شيئاً عنها ولا حتى إن كانت لا تزال حية. ما يعلمه قليل: زوجها تاجر دمشقي. حتى اسمه لا يعرفه بالكامل، بِمَ يتاجر؟ لا نعرف. خالتي هذه. لم أرها إلا مرة واحدة. إنّها الأخت الوحيدة لأمّي. اختفت عشرين سنة أو أكثر. زوّجتها جدتي وهي في الثالثة عشرة من أحد الأقارب. لكنّ لا زواجها ولا إنجابها بنتاً أراحها من الخدمة في البيوت. زوج يشرب العرق طوال النهار. ليلاً يضربها ويأخذ الأجرة منها. ضرب عنيف يُرغم الجيران كلّ ليلة على إبعاده عنها. تستمرّ أمّي في لوم جدّتي على مصير أختها الأسود. أحياناً تقول: «قلب أمّي مثل الحجر، كلّما تأتيها أختها شاكية تردّها: «المرأة المستورة لا تترك بيت زوجها». الضرب والبكاء نشفّ حليبها. الصغيرة تبكي ولا تشبع. اختفت خالتي

أكثر من عشرين سنة. قيل إنها ماتت أو خطفها أحد السكارى من العسكر. قيل إنها تعمل مع البنات السيّئات الصيت والذكر. لكنّ أحداً لم يجد لها أثراً.

تقول أمّي إنّهما لم تكونا طفلتين يوماً. مات والدهما. فأرسلتهما جدتي للخدمة غير مبالية بصغر سنهما. ذكر خالتي يستدرج الصمت، ينتزع تنهيدة من أعماق قلبها.

جاء يوم، أذكره بوضوح شديد: امرأة بدينة، ترتدي ثوباً مزهّراً. له عقدة من خرز أبيض كاللؤلؤ فوق البطن تماماً. أساور ذهبية كثيرة ترنّ في معصمها. سلسلة ذهبية يتدلّى منها كتاب، أعلم لاحقاً أنّه يُسمّى مصحفاً. خلفها رجل مربوع القامة، ثخين الرقبة، وصبيان أكبر مني، كلهم في بدلات رجالية. لم تعرفها أمّي حين تكلّمت. لهجتها غريبة تماماً. إنها الزيارة الوحيدة. خالتي لم تمت. هربت ماشية إلى زحلة، ومن هناك إلى الشام. عملت خادمة. تعرّفت على هذا التاجر الدمشقي. لم تعد قبل أن تتأكّد من وفاة زوجها الأوّل. محاولتها رؤية ابنتها الصغيرة لم تنجح. كبرت الصغيرة وتزوّجت، لا تريد صلة بأمٍّ غدرت بها وتخلّت عنها. عادت خالتي إلى دمشق مكسورة الخاطر. غابت أخبارها ثانية. لكنّ أمي ما عادت تدمع حين تأتي على ذكرها.

أتساءل كيف يكون شعور من يدير ظهره لكل شيء. يبدأ في مكان لا يعرفه أحد. هل ينفع ذلك، ماذا عن العالم المعشش في خياله؟ هل ينجو منه؟ أتذكّر قصّة الفلسطيني الذي أصيب عام 1948 إصابة أفقدته ذاكرته، فنسي أنه متزوّج وله ولدان. خلال خمس وعشرين سنة تزوج ثانية وعاش في الشارع نفسه الذي تسكنه عائلته القديمة وفي بناية مقابل بنايتهم . قرأت هذه القصة في الجامعة. أخبرتها لرودي. قال إنه ذات

يوم سيجعلها فيلماً. كل قصة يسمعها يريد تحويلها إلى فيلم. كم فيلماً ستصنع، تسأله أخته سالي مشاكسةً، لو صدقت لدخلت موسوعة غينيس.

لِمَ لا نشتري بيت ناديا؟ إذا سألت أنطوان سيظنّ أنني أمزح مزاحاً ثقيلاً لا يُضحك، أو أنها دعابة ثقيلة من دعاباتي المألوفة.

لن يأتي أنطوان بعد بضعة أيّام، سيؤجّل قدومه حتى آخر الشهر. يسألني إن كنت أرغب في العودة إلى كليفلاند. أقول إنّ هناك أوراقاً ومعاملات رسميّة لم أنته من توقيعها. أعلم أنني وقعتُ كل الأوراق، بما في ذلك توكيلاً رسميًّا لأخي. لكنّ جسمي من حديد. النهوض من الفراش عبء، فكيف بالسفر.

ابنة أخي تأتي كل يوم. أساعدها في التحضير لامتحان فصلي في الإنكليزية. تتكلّم بطلاقة وتكتب بطريقة سيّئة. تعمل بتركيز لربع ساعة، بعدها تستدرجني للكلام عن الحياة في كليفلاند، عن رودي عن سالي، عن عملي عن فرق موسيقية ومغنين لا أعرفهم. أو تذهب إلى المطبخ لتأتي بقطعة من كاتو حضّرته زلفا أمّها. لا أقول لنقولا إنّ تعليمها مضيعة وقت، وإنّها ليستْ بحاجة إلى التمرّن الشّفهي بل إلى بذل مجهود في الكتابة.

أحبّ مشواري معه إلى كورنيش المنارة. رغم برد الليل، الناس بالمئات. يدلّني نقولا على معالم المكان، كأنني سائحة. «هذه المنارة القديمة، أرأيت تلك؟ إنها المنارة الجديدة. هذا المطعم يقدّم أطيب سمك. على تلك الصخور، الصيادون يقفون نهاراً. ألاحظت عدد الذين يقومون بالرياضة؟» انتبه إلى أنّه هو المدهوش فعلاً بالمكان.

أنطوان نشأ في هذه المنطقة. لذلك في كل سفر إلى لبنان، نقضي وقتاً طويلاً في تفقّد الأمكنة التي يحبّها: مدرسة الآي- سي، الجامعة الأميركية شوارع بلس وجان دارك عين المريسة، الكورنيش. حتى في كليفلاند، كلّما تلفته شجرة يقول: إنّ في الجامعة الأميركية مثلها أو أجمل منها. بعد مضي السنوات صار يقارن كلّ ما يراه في سفرياته بكليفلاند.

هنا نتجوّل مع أصدقائه أحياناً في الشوارع المحاذية للجامعة. لا يفعل سوى التحسّر على بيت قديم كان هنا أو هناك ولا يجده. يبحث عن مطعم كان يبيع أطيب فول، يجد محل أحذية بدلاً منه.

لا يجد أيضاً الختيار الذي كانوا يأكلون عنده سمكاً رخيصاً ويشربون عرقاً، لا أثر لكوخه ناحية البحر. يزعل من مزحتي حين أقول «أمر طبيعي ألا تجده. الآن صرتَ أنت ختياراً» يقول إنني قاسية، لا بل قاتلة حين أمزح.

رُبَّما لأنني لستُ معتادة على المزاح. فأمّي قليلة الكلام. بعد خطف أبي، ازداد سكوتها وشرودها، حتى خلال مساعدتي لها في مطبخ الدير لتعدّ طعاماً للراهبات والتلاميذ، لم تكن تتكلّم. تشير إلى الخضار مثلاً فأعلم أنّ عليّ أن أغسلها وأجفّفها أو أقطعها قطعاً متساوية لصينية الخضار واللحم. أو تناولني ملعقة مشيرة إلى الطنجرة. فأفهم أنّ عليّ تحريك اللبن، أو قشط الطبقة البنيّة قبل أن يغلي اللحم في الطنجرة. أذكر حركة أصابعها في لفّ ورق العنب، أو نقر الكبة، أقراصها تتراصف في الصواني متساوية الأحجام.

أيام تمرّ، لا أحكي فيها إلاّ في المدرسة. يخرج صوتي من حنجرتي مبحوحاً غريباً كالمحبوس في قنينة. قبل أن أكبر، كنب أحبّ

الجلوس قربها على الكنبة الملاصقة للشّباك. أراقبها تطرّز طاووساً، يتقدم الوقت فيظهر ذيله بألوانه المبهرة. تزجرني لأبعد رأسي. تخشى أن تغرزني خطأ بالإبرة. لا يتبدّل جلوسها، حتى حين يشتدّ الرعد كما كانت تسمّي القذائف في بداية الحرب.

في الأيام الماضية، حلم يتكرّر. أستيقظ منه متعبة. أراها في تنورة واسعة مخططة باللّون الأزرق والكحلي. قميصها تصل أكمامه إلى الكوع. تحت التنورة بنطلون قطني ضيق عند الكاحل. في قدميها مشاية بلاستيك بيضاء. أكون في حديقة الدير، ألعب بالطابة مع تلميذ داخلي، أو نكون على مقعد خشب، ثمّ نقوم لنتمشّى. تلتفت أمّي نحوي في أعلى الدرج. تبتسم عيناها وتظهر مروحة التجاعيد عند طرفيهما. أنظر نحوها كأنّها شخص لا أعرفه. تكمل شطف الدرج بالماء والصابون مديرة ظهرها تماماً لنا. في مرّات ألتقيها على مقعد بمحاذاة البحيرة في كليفلاند. من بعيد أعرفها. فمن يضع منديلاً رقيقاً مطرّزاً تظهر من تحته جديلتان بيضاوان غيرها؟ تلتقي نظراتنا، تلتمع عيناها. ماء يغزو بياضهما. كأنّ صورتها لم ترتسم في بؤبؤ عيني، أتجاهلها مسرعة في خطاي، ألمٌ يقلّص عضلات وجهها لا ترفع يداً، لا تفعل شيئاً للّحاق بي.

أنهض من فراشي. صدري يؤلمني. أفكّر: ماذا فعلت؟ أشرب ماءً كثيراً. لو استشارني تلميذ بشأن كوابيسه لعلمت كيف أريحه، لكنني عاجزة عن مساعدة نفسي. لا أستطيع الخلاص من قبضة الكوابيس كل ليلة. كأنّها تخرج قلبي من بين أضلعي، ترميه أمامي على الطاولة فأسمعه ينبض، يتضخّم كالبالون، ينتفخ تدريجياً. أرى شرايينه الدقيقة تتفجّر.

أستعيد عينيها التائهتين. حين تخرج عن سكوتها في الحلم، تتكلّم عن أبي، أجيبها: «أبي مات يا أمي، ما بكِ؟» يوقظني الفزع الذي يرتسم على وجهها فيغضِّنه في ثوانٍ.

يخبرني البواب إنّ السمسار سيتفقّد الشقة برفقة زوجين يرغبان في الشراء. عبثاً أحاول معرفة الوقت. يكرّر البواب: قال السمسار بعد الظهر، متى؟ لم يقل.

- لكن بعض الظهر عبارة عن ست ساعات على الأقل. في المرّة التالية، قُلْ له أن يكون دقيقاً.

أنشغل في لملمة أغراضي، أدسّ الصور في حقيبة يدي. أمحو كل أثر لوجودي. الصحون أوضبها مكانها. الكنبة أغطيها مجدّداً بالكتان الأبيض. حقائب السفر أخفيها تحت السرير. أضع الكاميرا في حقيبتي. سأحاول أن ألتقط صوراً كما طلب مني رودي.

غيوم تحجب الشمس. الشوارع كلها ظليلة. روائح الأطعمة في الجوّ. سردين يُقلى في زيت حامٍ، حمامة بيضاء على السياج، تنظر إليّ بعين سوداء يغطيها غبش أبيض سميك.

أعيد لابنة أخي هاتفها. أشتري خطأً. يزعل نقولا. يقول إنّ لا داعي لذلك. فلن أمكث في لبنان إلاّ لوقت قصير. أبعث برقمي لأنطوان، لرودي لسالي، لميلاني صديقتي. لا أدري لماذا أرسله لإيفان؟ لكنني أفعل. أقوم بذلك بسرعة قبل أن أندم. ما وصلني من سالي هو جملة، ربّما كتبتها مساعدتها في العمل. بعدها لا شيء. كيف أتوقّع منها هنا ما لا تقوم به في أميركا؟

تعاودني آلام رقبتي وظهري. لم أقم بأي تمرين منذ أسابيع. أرجئ رياضتي كل يوم. أمرٌ لا أفعله عادة. إذ كنت أنتظم إلى حدّ الهوس. زوجة أخي تقصد نادياً تقوم فيه بالأيروبيكس تحثني على مشاركتها. «نتسلى معاً. المدرّبة شاطرة. أعرّفك بصديقاتي في النادي. ربّما تشاركيننا سهرتنا الأسبوعية». لا أستفسر عن السهرة خوفاً من أن تعتبرني موافقة. أستغرب تعليق أخي: «نسوان بلا مخّ» ينتظر أن تدخل زلفا إلى المطبخ. يُفهمني أنني لست المقصودة. إذ يقول: «لو ترين الصديقات اللواتي تحكي عنهن».

ينظر إليّ مليًّا: ما حاجتك للرياضة؟ فأنت جلد وعظم.

- لديّ مشكلة في فقرات ظهري.

- هذا بسبب نحولك. كلّ ما عليك فعله هو أن تأكلي أكثر، لا أن تُرهقي نفسك.

يحكي كأمي. تسألني عندما أتصل: «هل زاد وزنك قليلاً؟» أدّعي ذلك فتفرح. منذ صغري، تعتبر الطعام دواء للحرارة، للتّعب، لقلّة النوم، لتعكّر المزاج. تخبّئ كلّ طعام تُقدّر أنني أحبّه. حتّى لو تعفّن تنتظر أن آكله أنا أو أحد أخويّ. يزعجني أن أنسى الفترة التي عشتها مع أبي. أذكر فساتين أمّي. ذهابنا معاً عند الخياطة: الطقم الأزرق السّماوي، الجاكيت القصيرة ذات الحزام الرفيع والبكلة الفضية، التنورة التي يبين عند طرفها دانتيلا مخرّمة. ثياب كثيرة تقلع عن ارتدائها بعد خطف أبي. تضعها في خزانته قرب قمصانه وبدلاته، تعكف بعدها على خياطة ملابسها كلّها.

ترتدي ما يشبه الزّي الواحد: تنانير واسعة، تصل إلى الكاحل. قد تكون سوداء أو مخططة أو ملونة. واحدة للعمل، أخرى لكل يوم. والملوّنة ليوم الأحد والقدّاس.

يقول أخي إنه لا يعرف ماذا يفعل بالشراشف ومحارم القماش وأغطية المخدّات. كُلّها طرّزتها أمّي على مدار السنين، ليس لديه القدرة على إعطائها لأحد، يسألني للمرة المئة آن آخذ بعضها. لو يعلم كم لديّ منها. في القبو لوحات، مطرّزات، أوانٍ، أنكبّ على صنعها لسنوات.

فترة دراستي أخذتني إلى عالم آخر. كان جميلاً أن أفعل كل شيء وحدي. البحث الطويل عن الاختصاص الملائم، قراءة المنشورات الجامعية، القيام بمقابلات. التسلّل من البيت وإليه دون أن أخبر أحداً عن وجهتي. كان ثمة شيء لي وحدي. القلق من العودة إلى الدراسة. الخوف من نتيجة الامتحانات الأوّلية. لوائح بالكلمات الصعبة أنصرف

لحفظها. أجد الكلمات في مقالات علمية أقرأها، أو اقتصادية، في الروايات، في كتب علم النفس أو النقد. أحزّر نفسي فيما أغسل الخضار أو أسقي الحديقة. كلمات أخرى أتعلمها من البرامج الحوارية. ماذا لو أفشل في الحصول على منحة؟ سؤال يشغل رأسي شهوراً قبل وصول الرّد. هكذا أكتشف المكتبات العامّة. عشرات السنين. أعيش هناك ولا أنتبه لها. كل هذه الكتب مجهولة بالنسبة إليّ. آلافٌ منها. يراني أنطوان مشغولة بها. يسألني: «ماذا تحضّر لنا مارتا ستيوارت؟» لا أقول إن التسمية تغيظني. أبتسم منصرفةً إلى ما يظنّه كتباً عن البستنة والطبخ أو الديكور الداخلي.

في سرّي أخبر رودي، رودي فقط. أتخيّل ابتسامته، ذراعه تلفّ كتفي، قوله: «عظيم ماما» عبارة تلازمه منذ الطفولة. يقولها عن الطقس، عن الدرس، عن اللّعب، عن الطعام، عن الأفكار، عن رفيقة له، كل ما يخطر ببال. يستخدمها مادحاً أو هازئاً. لا أقول لسالي. سالي «السَّفاح». يضحكها كثيراً هذا الاسم. أنطوان أطلقه عليها. «سالي بلا رحمة، تفتك بالجميع» هكذا نصفها فتفرح. يُعجبها أن تقضي على منافسيها. لا تفعل إلا ما تتأكد أنها الأفضل فيه دون منازع. في الباليه، في الكاراتيه، في كرة السلّة، في دراستها. حتّى في علاقاتها الاجتماعية. بطريقة ما تنجح في أن تكون المحور. تساعدها ملامحها القوية الواضحة. نظرة ثاقبة، جبين عريض، عينان واسعتان، يداها كبيرتان كأنهما قادرتان على عصر أي شيء أو تفتيته. لا شبه بينها وبين رودي. يرغمه أنطوان في الصغر على رياضة تلو الأخرى. ينسحب منها كلها. السباحة يحبّها. لكن حين يطلب منه أن يشارك في المنافسات ينسحب مجدّداً. خلافاته مع أنطوان تصبح عدائية كلّما كبر رودي. لا ينفع تدخلي سوى في إثارة أنطوان ودفعه للغياب عن البيت ساعات أطول من المعتاد. هذه الساعات تتحوّل لاحقاً أيّاماً أو أسابيع. يلازمني

خلالها رودي كأنّه اقترف خطأ يريد محوه، يساعدني في جزّ العشب، في قطف الخضار وتوضيبها وتجميدها، في الرسم على القماش ومزج الألوان. يجلس في المرجة تحت الصفصافة، يؤلّف قصصاً عن أشكال الغيوم وسرعة تحرّكها. المراهقة تضع حدًّا لهذا القرب. لن نستعيده إلا لاحقاً.

لِمَ لا أصبغ شعري؟ تسألني زلفا. تعرض عليّ اصطحابي عند حلاّقها.

- لِمَ لا. حين أكون متفرّغة، أتصل بك لتأخذي موعداً.

يضطرب نقولا ما إن توجّه زلفا كلاماً لي. أحياناً يتولى الردّ عني. يقول إنّ ابنته نالت A على امتحانها بفضلي. سمح لها بالمشاركة بالمخيم الصيفي مكافأة على التزامها بالعمل الجدّي.

يبدو أكبر من سنّه بسبب استدارة بطنه وبياض شعره. يخبرني إنّ صديقة جديدة لابنته ظنّته جدّها. «أكيد تستحي بي، فالآباء الآخرون أصغر منّي بكثير». لا أردّ. كلامي لن يخفّف عنه.

يتصل أكرم صديق أنطوان من أيام دراسته. يُعزّيني، يدعوني لقضاء عطلة آخر الأسبوع معهما في فاريا. يمرّر السمّاعة لزوجته. أنشغل طوال حديثنا بتذكّر اسمها، لا أنجح، أشكر دعوتهما متذرّعة بارتباطات عائلية. لولا المشروب لما وجد أيّ منا كلاماً يقوله للآخرين في الجلسات التي تجمعنا كل خمس سنين أو أكثر.

يؤجّل أنطوان موعد سفره مرّة أخرى. صفقة ما عليه إبرامها قبل التوجّه إلى لبنان. يتذكر أن Lakewood Community College تركوا رسالة على المجيب. ترغب المدرسة في أن أعمل مستشارة بدوام كامل. ينتظرون جواباً سريعاً مني.

الحادية عشرة. الهواء يبرد ليلاً. أختبئ تحت البطانية. أحبّ صوت الراديو يأتيني من باب الشرفة المفتوح. صوت أم كلثوم تغني «فكّروني» خشّة طويلة تقطع غناءها بين الحين والآخر.

أكرّر كل يوم الأفعال نفسها. لكنني لا أضجر، أكون خفيفة، كما حين أنتهي من امتحانات طويلة. أعود إلى البيت. لا أحد. هدوء تامّ. أحضّر طعامي، أفتح قنينة بيرة. أجلس على الشرفة الخلفية، أتأمّل غراباً أو سنجاباً تسلّل إلى الحديقة، اللقطينات الصغيرة تلتمع كالذهب تحت الشمس. الهواء يحمل رائحة شتول البندورة. بإمكاني النوم الآن. مشاريع كثيرة أخطّط لها. منها رحلات في باصات تسير لأيّام، أو قطارات أنام على وقع عجلاتها الرتيب.

كأنني هنا أعيش في مدينة دمى. كل شيء يتراءى لي ضيّقاً، صغيراً. السماء تظهر من البنايات كأنها قطعة من لوحة. أوّل ما استغربته في كليفلاند هو السماء الممتدّة فوقي عالية جداً لا آخر لها. زرقة تجرح العين. الغابات بأشجار يعلو بعضها عن المئة متر. لزمني بضع سنوات حتى اكتشف أن ما أراه ليس بحراً بل بحيرة. أكذّب أنطوان، أكرّر بعناد: «غير معقول. لو كانت بحيرة فأين آخرها. لا فرق بينها وبين بحرنا. فلِمَ تُسمّيها بحيرة». أعتاد الجلوس على ضفافها خصوصاً عند

غروب الشمس. في صغرهما، كانت النزهة إلى البحيرة شبه يومية. رودي يجلس قربي. يأبى أن يلعب مع سالي. صوت سالي المحتجّ على أصول هذه اللعبة أو تلك، يطغى على أصوات الأولاد من كلّ الأعمار. لا تهمّها الأراجيح. كل ألعاب الكرة تشارك فيها. الأولاد هناك يعرفونها، والكلّ يريد أن يكون في فريقها. أحياناً أخرى نذهب إلى الحدائق العامّة. يبتهج رودي فيها. يُطعم البط والإوز العائم في برك صغيرة أو بحيرات كما أسمِّيها. سالي تعترض. الألعاب في الحديقة هادئة ينقصها الحماسة. بفضلها بتّ أعْرف الجيران الساكنين حولنا كما تَعَرَّفتُ على ميلاني وابنتها دافني. دافني التي هربت من بيت أمّها ما إن بلغت الرابعة عشرة. تعيش الآن في ميريلاند وتعمل في محل لبيع الزهور. عندما تغضب ميلاني من ابنتها، تقول إنها ورثت كسلها وسذاجتها من والدها. كثيراً ما كانت تتركها في عهدتي أيام العطل المدرسية. تطلب مني هذه الخدمة بخجل. فوالدها في البيت بلا عمل يفعله سوى مشاهدة التلفزيون وشرب البيرة. تدير ميلاني مطعماً صغيراً غير بعيد عن مصنع للغاز وآخر للأدوات البلاستيكية. روّاده عمال بشكل أساسي أو سائقو شاحنات. تتدبّر عدداً من الوظائف لزوجها. لا يصمد فيها أكثر من يومين. يظنّ أن هذه الأعمال تحط من قدره وتحدّ من إمكانياته. شجارهما الدائم يوقظ حتى الجيران البعيدين عنهم. مرتين جاءت الشرطة. التلفزيون الذي تركتْه يتحطّم أمام الدرج عند المدخل أحدث صوتاً مرعباً في سكوت الليل. كان زوجها يعمل في مصنع للنجارة عندما تعرّفت عليه. لذلك يمتلئ قبو بيتهما بمشاريع غير منجزة لكراسٍ، لأرجوحة، لخزانة صحون، علب للخياطة. مهما صغر حجم ما يصنعه يتركه دون أن يكمله. العلبة لا غطاء لها. الكرسي دون ظهر. الطاولة بلا أقدام، الخزانة بلا درف. أفقدها صوابها. فاجأني أن أراها

تجنّ هكذا. هذه المرأة القليلة من أين لها هذه القوة. حتى حين رفعت دعوى طلاق وغيّرت الأقفال وطردته. كنا نسمعه في ساعة متأخرة يضرب الأبواب والنوافذ بقبضتيه. يناديها تارة مستعطفاً وتارة مهدّداً. يستمرّ شهرين على هذا المنوال. ثمّ يختفي من حياتها فجأة ولا تعود تسمع عنه خبراً.

لا أذكر كيف توطّدت علاقتي بها. كنت أمرّ بمطعمها أحياناً نتقاسم علبة بيرة. نجلس بهدوء بعد انقضاء زحمة ساعة الغداء. أو ليلاً بعد العاشرة. تعود والأولاد نيام. أنطوان إما مسافر أو في عشاء عمل أو مشغول بأمر ما. أعدّ لنا كؤوساً من الفودكا أو من التكيلا. نجلس تحت السقيفة أمام البيت. تشتم حياتها، تسخر من الرجال الذين لا يتاح لها رؤية غيرهم أو تشكو ما تواجهه مع دافني سواء في إهمالها المدرسي أو في طريقة كلامها ولباسها. مع الوقت تعتاد صمتي فلا يربكها. قد نبالغ في الشرب فنتحمّس لمشاريع ننساها في اليوم التالي. من بين مخطّطاتنا لم ننفِّذ سوى الرحلة إلى بنسلفانيا.

أنهت ميلاني تسديد أقساط المطعم بكاملها. لم يتبق سوى أقساط البيت، تريد أن تدلّل نفسها، تقول: «بعد سنوات القحط أريد أن أقوم بشيء لنفسي» لا أذكر كيف وافقتها هكذا لأرافقها أسبوعاً، لا أحمل فيه إلا القليل من الثياب وكيساً للنوم بناءً على نصيحتها.

نتنقل بين المزارع. ننام في العراء وسط الحقول. بعض المزارعين يعرض علينا مكاناً للنوم. نسرح مع الماشية. مئات من الأبقار تنقط برؤوسها أخضر الحقول والمروج. الأميش الذين نراهم أشبه بشخصيات خيالية تخرج من كتاب قديم عمره ألف سنة. ثياب فضفاضة طويلة،

قبعات مكشكشة فوق الجبين معقودة بإحكام تحت الذقن. لحى وأيد ناصعة البياض. عربات قديمة يسبقها صليل عجلاتها. أعينهم لا ترانا. كأنها رؤية سحرية. سنظل نأتي على ذكرهم في جلساتنا. عندما تثقل علينا الأشياء، نقول: «لنهرب للعيش عند الأميش» أكتشف بساطة ميلاني في هذه الرحلة، السهولة التي تتعرّف بها على الناس. ندخل مطعماً فتعرف كل شيء عن المكان عن النادل عن نوعية الرواد. أفكّر أن مهنتها نمّت فيها هذه العادات. في الرحلة نتذوّق جبناً ونبيذاً ومخلّلات، أصنافاً من الأطعمة لم يسبق أن أكلنا مثلها. نرى كميّات من اللحوم المقدّدة، من الأقبية المعتمة حيث تحفظ قوالب ضخمة من الأجبان، أنواع من البراندي والنبيذ والبيرة.. «لو نبقى هنا، أقول، فنتجوّل ونتنقل مع العمال الموسميين».

«ألم تنظري إلى وجوههم وأيديهم اليابسة»، تسألني؟

وعدتها بكتابة إيميلات ولم أفعل. صديقها الجديد عامل في مصنع الغاز، مطلق مرتين. له خمسة أولاد. اثنان منهما يعملان معه. ينام عندها في عطلة الأسبوع. ينتظرها حتى تأتي ليلاً. يشغل نهاره بإصلاح الأعطال في بيتها. يبدّل مسكات الأبواب، يصلح النوافذ. يطلي غرف البيت. لا يذهب في عطلته إلى مطعمها. يشعره ذلك أنه في عمل لا عطلة يقول. يمر بي أحياناً دون أن يدخل البيت، يقف في المرجة كأنه على أرض محايدة، يحدّثني واقفاً ثمّ يعود أدراجه.

كأنّ يداً تحطّ على جبهتي. توقظني من عمق إغفاءتي. أجفل. دعسات بعيدة في الشارع. الهواء يؤرجح درفتي الباب. أنهض وأغلقه. أضواء قليلة تلتمع وسط بنايات مظلمة كأنها عيون كبيرة. الساعة الثانية إلا ربع. صحوتُ تماماً. أتمشّى بين الغرف. أحسّ أن روح أمّي تتبعني.

ربّما الفراعنة محقّون. يقولون إنّ روح الميت لا تغادر أمكنتها إلا بعد أربعين يوماً.

أستلقي فيما أقلب كتاباً اشتريته لرودي. صور بالأبيض والأسود لمهن زالت. حوذي بعقال وكوفية. سقّاء يبتسم للصورة، فكّه الأعلى خالٍ من الأسنان، وفي الأسفل سن واحدة. جلاّخ منكبّ على سكاكينه. مبيّض، بين يديه قدر نحاسية كأن غيمة تخفيه عن الأعين. غبش يخالط الصور كلها. هل كان العالم أجمل. كم توحي الصورة بالسكينة.

- أنطوان؟ صباح الخير؟

- تفاجأتِ؟

- ليس من عادتك الكلام في هذا الوقت المبكّر.

- أليس الظهر عندكم؟

- بلى، أقصد إنه باكر بالنسبة إليك.

- لم أنم جيِّداً. قلت أكلمك... ثمّ أنني انزلقت البارحة ليلاً على الدرج. أوراق الشجر اللعينة. وقعتُ على كتفي.. مزقٌ في عضل الكتف.

- من قال إنه تمزّق عضل؟ أذهبت إلى المستشفى؟

- فوراً ذهبت رغم صعوبة القيادة. لكنّ الألم لم يكن شديداً بعد.

- ماذا أعطوك؟

- مضادًّا للالتهاب ومسكّنات.

- لم تنم حتى مع المسكنات؟

- ليس بعمق. نوم متقطّع. النوم على جانب واحد مزعج.

- سوف تؤجّل مجيئك؟

- لا... لا أعتقد... قالت أمّي إنك لم تزوريها بعد. الطقس حلو.

البحر قد يفيدك. ما الذي يربطك ببيروت على أية حال؟... ألم تتصلي بعد بأكرم أو بياسر؟

- لا أظنّ أن لديّ رغبة الآن في الزيارات والرّسميات.

- رسميات، أية رسميات... قبل أن أنسى، عليك أن تردّي على الكلية، وجدتُ رسالة منهم على المجيب.. كما كان هناك رسالة غريبة. صوت رجل لا أعرفه. يقول إنه مشتاق لرؤيتك ويسأل عن أحوالك.

يضحك أنطوان إذ يربكه صمتي ثم يردف :«الرجل لا يقصدك أكيد. لم يذكر اسمك. على الأرجح اخطأ بالرقم.» يستمرّ في الضحك.

- اهتمّ بكتفك. لا تنسَ فتح مرشات الماء مساء. حتى لو تأخر الوقت. أوْكل ميلاني بالسقاية عندما تأتي إلى لبنان. لا تنسَ..

هل إيڤان من ترك رسالة؟ رقم خاطئ على الأرجح. لو أسمع الصوت أعرف.. بإمكاني الاتصال برقم بيتنا وسماع الرسائل على المجيب. لكن أنطوان محاها بالتأكيد.

اضطرابي يمنع انصرافي إلى إعداد الغداء. يسكت ثلاث سنوات ليحكي الآن معي. غير معقول.

أقوم إلى المطبخ. كثير من الأطعمة التي اشتريتها سأبقيها في البراد. تحمست لإطعامهم وجبات لا يعرفونها، نسيت أن المطبخ غير مجهّز. لن أطلب من زلفا استعارة ماكينة طحن الخضار أو اللحم وإلاّ لقالت على الفور: «ألم أقل لك لا تُتعبي نفسك. نأكل في المطعم. هكذا لا يتعب ولا يشتغل أحد».

انظر إلى الطاولة، إلى الخضار المفرومة، إلى البصل والفليفلة الحمراء المشوية، إلى فيليه السمك المنقوع، وريقات الحبق فوقها ماء كالبلور، الشّمار، إكليل الجبل، المردقوش. كم أتعبني شراؤها. بعضها

اشتريته من بدوية تفترش الرصيف، بعد أن جلت في أربعة متاجر كبرى. لم أرد أعشاباً ميتبسة. طعمها مختلف.

أفكّر بإهمال أنطوان. لِمَ يترك أوراق الشجر تتراكم دون كنس؟ دوّنت كل الأرقام في حافظة الهاتف. ليس عليه سوى رفع السمّاعة. يكفي أن تأتي العاملة ليومين ليبقى كل شيء نظيفاً ومرتباً.

أتذكر وقعة أمّي. اشتد أيامذاك القصف.

قذائف تسقط قريباً منا. نسمع عويل المصابين، استغاثات المارة، شظايا تفرقع كأنها تدك جدران بيتنا. نحتمي بالممشى الداخلي. تضمني أمّي كأنها تغطّيني بجسدها، تضغط يدي، تؤلمني، أتملص من قبضتها. تشدّني من كمي. تجلسني أرضاً رغماً عنّي. دعسات متسارعة، أحذية تطرطق فوق السلالم. أصوات خافتة تخشى أن يفاجئها القصف إن علت. قذيفة أخرى، يعبق البيت بالدخان. تهرع أمّي لتفقد الغرف. ترى النيران تلتهم مطبخاً في بناية قبالتنا. صراخ يرتجف له قلبي. أسألها باكية: هل احترقوا؟ تقول: «لا». تجرني من يدي، أسرعي، أسرعي انزلي الدرج. تتهاوى القذائف واحدة تلو الأخرى، تقرب وتبتعد. تدفعني أمامها. لا أراها تتدحرج وترتطم بالجدار عند صحن الدرج. أسمع أنينها فالتفت. تنهض بثقل رافعة ذراعاً كأنها سلخت عن جسدها وألصقت في غير موضعها.

لم نبرح الملجأ ليومين. خلالها تستمر ذراع أمي بالانتفاخ. لون اليد والمعصم حتى الكوع يتدرّج بين أزرق داكن يقارب السواد إلى أزرق فاتح. «يا أم عبدو، عليك أن تذهبي إلى المستشفى» يقولون فزعين من منظر ذراعها الآخذ بالورم. صراخ نقولا لن يقنعها بالذهاب إلى

المستشفى. «أعرف مجبّراً عربيًّا شاطراً. في المستشفى ينهبونك يا ابني». تقول.

ستظلّ تشكو من يدها طوال حياتها. جبّرت يدها فلحم العظم في غير موضعه الصحيح. لمعة الألم في يدها كالبرق تصيب دماغها، تقول في وصف وجعها.

أخجل من البقاء قربها. أدعها في زاويتها. أنشغل عنها مع الأولاد. لا أقترب حتى حين تناديني لإطعامي. أتظاهر بالشبع لأبتعد. أنام في محيط عائلات أخرى قرب أمهات لا يشبهنها. كانت تحدس ما يجري، فتحذر في الإيماء لي أو تكتفي بالنظر إليّ لتدعوني لأمر ما. تدعني غالباً في الملجأ وتصعد إلى الشقة لتغسل الثياب وتطبخ وتنظّف. عندما ينهمر الرّصاص والقصف، أواصل اللعب أو سماع الموسيقى من الراديو فيما أرمق المدخل بطرف عيني . لكنها لا تخاف ولا تنزل. وحده نقولا يبقيها في الملجأ. لا تقوى على زعله. لكنه قلّما يأتي. رفاقه كثر، أولئك الذين يقضي أياماً في بيوتهم أو معهم، في المراكز الحزبية أو في بيوت يحتلّونها. لا تعاتبه كأنّ طول غيابه يعني متابعة لموضوع أبي. تبادره ما إن يدخل البيت «ماذا عن أبيك يا ابني؟ متى، يفكّون أسره؟» يعتاد أن يؤلّف لها أخباراً، كأنّ يسمي مسؤولين قابلهم أو وعوداً ذكروها.

للسّمك المنقوع رائحة الحقل بسبب الأعشاب البرية التي غمر بها إضافة للثوم والحامض. أقلّب قطع اللحم والبصل على النار، أسكب فوقها قنينة بيرة وبندورة مشوية.

تقول أمي إنها تحب طبخي. تعدّد الأكلات البسيطة كالبرغل والبندورة وحساء العدس. إنها طريقتها لتقول إن الأكل عند أخي ليس

طيّباً. تأنف اللحوم والدسم. «جفّ قلبي» تقول.

أقلّب في المقلاة خليط البندورة والحرّ والفليفلة المهروسة وبرش الحامض والثوم.

لِمَ يتصل الآن؟ أيعلم ما بي؟ يصيبني تعب شديد فجأة. لو يأتي أخي وحده. نأكل، نحاول الضّحك، قد نحكي عنها..

الزيت يفرقع في المقلاة يحترق في ثوانٍ. رائحة الحريق تغشى المطبخ والبيت. أشرّع النوافذ. أجراس الكنيسة ترنّ متسارعة، هواء ربيعي يحمل غيمة الحريق بعيداً.

أتصفّح ألبومات كثيرة من الصور: مواقع أثرية، أولى البطاقات البريدية، ألبوم للعملات القديمة، لرسوم نفّذها مستشرقون لصورٍ من عهد المتصرّفية... أحتار ماذا أختار، كلّها قد تعجب رودي.

قلائل يدخلون المكتبة في هذا الوقت. لكن معظمهم يقضي وقتاً طويلاً مثلي. يقلبون الكتب المعروضة، يقرأون على أغلفتها الخلفية. يجلسون على كراسٍ واطئة موضوعة في الزوايا.

كان رودي يحبّ الكتب في صغره. أقرأ له قصة، يطالب بإعادتها مردّداً Again , Again. أكرّر حتّى يبحّ صوتي. أما سالي فتنتشل الكتاب مني قائلة «الآن أنا أحكي لك القصّة. تخبر واحدة أخرى فيها الشخصيات نفسها، لكنّ أحداثها ومغامراتها مختلفة تماماً. باكراً جدًّا تعتمد على نفسها لتقرأ، تقول « أنا... أنا» في المكتبة. أي أنها هي من سيختار كتبه. الكتاب الذي لا تختاره بنفسها تهمله عقاباً لي، أو تقص صفحاته مدّعية أن رودي الرضيع هو من فعل ذلك.

خلال طفولة رودي يقول أنطوان أنني أفسده بتربيتي له كبنت، أدفعه للاعتماد عليّ وأمنع استقلاليته. ألا يساعدني في جمع الزهور وتجفيفها؟ أليس من يمتنع عن اللعب بالكرة ليلازمني؟

امرأة في سن أمّي، تبحث جهة الألعاب الفكرية، تسأل البائعة عن لعبة كمبيوتر. تقرأ على أغلفة الألعاب، تحتار بين لعبتين فتسأل البائعة أيهما أكثر تشويقاً لصبي في العاشرة؟

أتذكر الإشارات التي كانت ترسمها أمي على علب الأدوية. أشكال طفولية لتميّز دواء المرارة عن دواء الميغران أو الحرارة أو غيرها. قبل أن يُخطف أبي، ما كنت أنتبه إلى أنها لا تقرأ ولا تكتب. أبي يوقّع كل ما يختص بالمدرسة، يذهب إلى اجتماع الأهل. عندما أستصعب فرضاً، كان هناك عبدو أو نقولا.

في القصف الشديد، كانت تهرع إلى مدرستي، لا تكون وحدها، مئات من الأهالي المتلهفين لأخذ أولادهم. فوضى وهلع في كل مكان. تتقدّم باتجاه فتيات من عمري. تذكر اسمي، عندما لا يعرفنني، تكرّر اسم صفي بالإنكليزية. ألتقيها في الممرات بين الصفوف تسأل كل من تلتقيه عن صف الـ Fox أين هو؟ تقصد الـ .Fourth حتى ذلك الحين كنت أظن أنها لا تجيد إلا العربية. يحب نقولا أن يحفظ ما تقوله. يستخدم كلماتها الأجنبية ما يدفعها إلى الضحك معه. تخطئ فتسمّي دواءً مثلاً باسم مسحوق للتنظيف وتقول إنها أخذت منه حبتين ولم يشفَ رأسها. أحسد أخي. أحاول أن أفعل مثله وآخذ الأمر بخفة. لكنني لا أفعل. أتمنّى أن أختفي عندما تخطئ وأنا برفقتها. في الصيدلية، تفرغ كيساً من علب الأدوية الفارغة لتعطى بدلاً منها. لا تصدّق أن تدوين أسمائها على ورقة يكفي. تقول إنه لا يعقل أن تُملأ العلب بالكتابة هكذا لو لم تكن ضرورية.

لم أكتشف أنها لا تقرأ إلاّ حين صارت تصطحبني لنجول معاً سائلين عن مصير أبي. يرسلونها إلى مركز قرب فندق ما. تأمرني بأن

أحفظ الاسم. تقف متأمّلة كل بناية عالية تقول «اقرئي، هذا هو الأوتيل يا ابنتي؟» صرت أنهرها. أخجل من وقوفها عند كل بناية وتحديقها باللافتات، أقول: «كفي عن ذلك، لا داعي لتفضحينا. سأفعل بنفسي، لا تمدّي إصبعك هكذا. لا تتكلّمي بصوت عالٍ.. الناس يسمعوننا... ماذا سيقولون؟»

- «ماذا سيقولون، يا ابنتي، هل نفعل شيئاً غلطاً؟»

صور، صور تغزو رأسي. أنام. أنهض، أخرج. تتبعني كظلي. أراها مستلقية في السرير. يدها النحيلة تشدّ فراغاً لبرهة، ترتجف ثم تهوي. أنين عميق، تفتح عينيها. لا ترى. تغمضهما. وحيدة هكذا. من كانت تنادي؟ من الذي تغمغم اسمه ليضع يداً على رأسها المحمومة فتنسى أنها هنا في مكان لا تعرفه. ولا أحد يعرفها.

أشتري كتاب البطاقات البريدية ورواية. أدخل مقهى في الطابق الثاني من المجمّع. أحبّ مقاعده وطاولاته الخضر التي تتوزّع حول نافورة ماء. أستغرب هذا العدد من الروّاد في وقت يعمل فيه الجميع، أو يكونون في المدارس. معظمهم بمفرده شارد بالمتسوّقين، يدخلون المحلاّت. تخرج البائعات من محلات لا زبائن فيها. يتكئن على الدرابزين، يتبادلن أحاديث متعجلة. كثيرون حولي يتحدّثون على الخليوي. تعلو ضحكات. يحتدّ الكلام. العصير ليس طازجاً كما يدّعي النادل، البودرة تترسب فوق قطع الثلج وأسفل الكوب.

رأيت إيڤان في أحلامي الليلة. ربما السبب هو الرسالة المتروكة على المجيب، استيقظ من حلمي حزينة. أغفو فأرى حلماً آخر. في واحدٍ منها كنت أقود سيارتي وحدي. أغنية جميلة يبثها الراديو. هواء حلو يطيّر شعري. قلبي متحرّر من ثقله. أدخل بستاناً لأشتري فاكهة. أمر

اعتدت على فعله هناك بدل أن أشتري الخضار والفاكهة من المتاجر، أحمل سلّة قصب، حبّات تفاح تحني الأغصان. لكن عينيّ تقعان على تفاحة موشّحة مميّزة، أفشل في قطفها. أتسلّق الشجرة بخفة. لكنني حين أصل إلى أعلى، أجد أنني بعيدة جدًّا عن الأرض كأن ما يبعدني عنها أكثر من مئة متر، الغصن يصبح أرفع وأرفع. في الأسفل يسرح الناس كالنمال الصغيرة غير منتبهين لوجودي. أراه. يدخن متأمّلاً السماء من خلال الأغصان العالية.

يقفز قلبي، كأنه يغادر أضلعي. أقول اسمه. لا يطلع صوتي. أحرّك يدي. لا يراني كأنني مصنوعة من هواء. لست موجودة. يطقّ الغصن الذي صار رفيعاً كعود صغير. لا أكترث لوقعتي، أفكر إنه سيراني هكذا. أسقط فيظلم المكان، يتبدّل يصير قفراً معتماً. أحدس أن إيڤان ربّما هنا لكنني لا أرى شيئاً ولا يطلع لي صوت.

أطيل وقت يقظتي بعد حلمي. أشعل النور. أشرب ماء. أغسل وجهي. أقف إلى الشرفة. أنظر إلى الكلاب تنبش كيس زبالة قرب محلّ السندويشات. أستدرج الهدوء إلى رأسي. أتخيّل نهراً صغيراً وبيتاً ومرجاً. أرى خرافاً بيضاء كالثلج. تمرين لأجلب السكينة إلى قلبي.

أجده في زحمة بيتنا. حفلة أرى فيها معارف وأصدقاء لم ألتقهم أو أسمع عنهم منذ أكثر من عشر سنوات. ألمحه يهمّ بالدخول إلى غرفة النوم، يستوقفني أحدهم للسلام عليّ. يوكلني أنطوان أيضاً بجلب مزيد من الكؤوس النظيفة. لكنني أدفع الجميع من دربي كأنني أسير في مظاهرة. ما هذا الحشد؟ لا أجده. ألمحه يغادر جهة الممر. في الممر، نساء بزينة فاقعة، أحاديث وأناس منشغلون، لا ينتبهون لأحد حولهم. يدلف إلى الخارج. أتبعه فيما الزحمة والتدافع يمنعانني من الوصول

إليه. أراه أخيراً يدير ظهره للجميع. ينظر ناحية الطريق. أركض. أتعثر بحجارة كثيرة. أنهض، أصل إلى الصفصافة كأنني قطعت جبالاً وودياناً لا مسافة أمتار. تلامس يدي كتفه.

أهم بمعانقته. يرجع خطوة. يبتسم لامرأة لم ألحظها قادمة جهة الطريق. أحاول أن أهمس له بأنني أريد أن أراه على حدّة. يكلم المرأة الممتلئة الشقراء في الآن نفسه فتضيع كلماتي. يحكيان بلغة لا أعرفها ولا تشبه لغة سمعتها.

أنتبه إلى التغيير الكبير في كلّ ما أراه. صحيح أنني كنت آتي إلى لبنان، لكنّ زيارة تدوم لعشرين يوماً كل خمس سنوات، لا تتيح لي فعلاً رؤية شيء. كنّا ننام معظم النهار، نخرج للغداء. دائماً هناك دعوة ما لعرس، لحفل معمودية، لعشاء.

لا أذكر أنني نمت مرّة في بيت أمّي. أعود مساءً برفقة الأولاد إلى جونيه حتى لو قضينا النهار كله عندها. تقول «نامي مع الأولاد هذه الليلة» أتحجّج دائماً بارتباطات وزيارات. «هناك غرفة نوم فارغة، تقول، الهواء حلو فيها ليلاً».

في ثلاثة وعشرين عاماً، تتبدّل أمور كثيرة، حتى المدرسة التي تعلّمت فيها هُدمت، وقامت مكانها بناية أشبه ببرج. كثيراً ما أرى نفسي في الأحلام واقفة في ملعبها المطلّ على ساتر ترابي ضخم، أو محشورة وسط عدد هائل من التلاميذ في المستودع.

«لا شيء يبقى على حاله» تقول أمّي كلّما سألتها عن بيت أو محل كان في حيّنا. كل مرّة آتي فيها، أستغرب كم تكبر. غادرتُ عام 1983، صحيح أنها لم تكن صبية بنظري أبداً، لكنها حينها كانت نشيطة تعجز عن الجلوس إلاّ إن كانت تطرّز أو تخيط شيئاً. فيما بعد

سألاحظ انحناء كتفيها. ثقل مشيتها، نحول أطرافها. خلو فمها من الأسنان تدريجيًّا. كأن السنين تترك أثراً مضاعفاً عليها. حتى صورتها في عرسها لا تُبديها أصغر إلاّ في وقفتها المستقيمة.

لم أرد وأنا أحضّر لعرسي أن تساعدني. «ذوقها قديم» أقول لنقولا. يرسلني مع صديقة له لأشتري ما أحتاجه. رغم ذلك أحتار طويلاً كيف لي أن أعرف أيّة ثياب هي المناسبة للسهرة، للعشاء، للعرس، للتهاني. أنطوان لم تعجبه مشترياتي. يقرّر أن يرافقني بنفسه. أقيس كل ما يختاره. أشتري ما يوافق عليه. أرتبك من الأسعار الباهظة للثياب. ماذا أقول لأمي، صرفتُ كل ما أرسله عبدو على ثوبين. أكيد لن تقبل أن يدفع أنطوان. ستقول «على قدّ بساطك مدّ رجليك» حين أخبرها. تدلّني على أثواب في مجلة قديمة. بإمكانها أن تخيط لي تقول الموديل الذي يعجبني. يكفي أن أشتري الأقمشة. «ما رأيك لو تلبسينني تلك الثياب المخبأة في خزانتك. ألم توفّريها لي؟» بعدها تمتنع عن قول شيء. أريها شيئاً اشتريته، تقول: «مبروك الله يُهنئك يا ابنتي» استمرّت ترفض فكرة أن يشتري لي أنطوان شيئاً. «سيزعل أبوك». تقول.

أذكرها في العشاء الذي دُعيتُ إليه عائلتي. عبدو جاء خصيصاً من السعودية. كنت أرتدي ثوباً فرنسي الصنع لأوّل مرّة. أضع زينة مشابهة لزينة أمه وأخواته وخالاته. أنتعل حذاء عالياً، أحمل لأول مرة حقيبة يد كهذه. شعري مرفوع ومثبت وسط رأسي. أخواي في بدلة سوداء وربطة عنق. أمي تلبس تايوراً خاطته كي تلبس شيئاً جديداً وتفرحني. تحمل حقيبة يد هي نفسها التي تظهر في صورنا ونحن صغار في عيد الميلاد أو الشعانين.

حاولَتْ التملّص من الدعوة على العشاء بحجج كثيرة. «لا داعي

ليتعبوا أنفسهم. الدنيا حرب. لا أحد يعتب على أحد في هذه الظروف» يتبرّع نقولا في تلطيف الأجواء كأن يقول: «أنت يا ماما الكل بالكل، ما بك أنت أم العروس، أيجوز ألا تقبلي الدعوة، ماذا يقول أبو عبدو حين يعرف؟». تطأطئ كالمغلوبة على أمرها.

دائماً أستعيد تلك الليلة. أخي عبدو لن يجد صعوبة في الكلام عن السعودية، عن العمران فيها، عن الخبرات الأجنبية، عن تحويل الصحاري إلى بساتين، عن تحلية ماء البحر، عن المستقبل الواعد لدول الخليج وكيف ستسيطر على العالم. أرى نقولا يمازح أنطوان أو يجامل إحدى قريباته الجالسات بجانبه. يداوم أنطوان على إحاطة كتفي بذراعه. أنظر إلى أمّي. عيناها تائهتان. ظلّ ابتسامة زائفة على شفتيها. تحدّق في السلطة أمامها. تأكل بتأنٍ. تُقرّب الملعقة من الخضار، لا تجد قطعة خبز تعينها في ملء الملعقة. تفعل ذلك بإصبع يدها الأخرى. أتأمّلها تتقاتل مع قطع اللحم الكبيرة غير دارية كيف تقطعها، أصلّي ألا ينتبه لها أحدٌ فيضاعف همّها.

في صور العرس، لا تظهر إلا في واحدة، يناديها أخي لتؤخذ صورة للعائلة مجتمعة. في الصور الأخرى المأخوذة داخل الكنيسة تبدو غير واضحة وبعيدة وسط الناس.

أسألها «لِمَ لا تزورينني يا أمّي؟ كليفلاند حلوة. تقضين شهراً معنا. ما الذي يبقيك هناك؟ لا كهرباء، لا ماء، لا شيء..» تقول «أضيع» أستغرب ردّها. أطمئنها إلى أنني سوف أكون بانتظارها. تسأل كيف ستدبر أمرها في مطارات الأجانب وهي لا تحكي لغة أجنبية. ثم كيف ستعرف طائرتها وهي لا تقرأ. قد تركب طائرة تأخذها إلى بلد آخر. كيف تجد طريقها بعدها؟

اعتادت دائماً أن تحفظ علامات تميّز بواسطتها الشوارع التي نمشي فيها لأوّل مرة. تستطيع عينها أن ترصد شيئاً غير مألوف تراه بينما أتخطّاه أنا دون أن ألحظه. ليست الدكاكين ولا المطاعم أو الأفران. لافتة عليها رسم واضح، ستارة طويلة مثلاً على إحدى الشرفات، رصيف جوّفته قذيفة قديمة. شجرة أكي دنيا أو ليمون في إحدى الحدائق. أو مركز حزبي سمعت فيه ما ساءها ولم تنسه. كالمرّة التي قال لها فيها مسؤول المركز: «بدل أن تجلسوا في بيوتكم، تبلوننا بذهابكم إلى الغربية. بعد ذلك تطلبون منّا أن نفعل شيئاً. ما دخلنا نحن بأولاد القحبة؟ اذهبي يا خالتي إلى بيتك. عندما نبادله بأي عكروت معنا نخبرك. اذهبي ولا تبقي هكذا بين أرجلنا. لدينا عمل غيرك. لدينا بيوت وأرزاق وناس في رقابنا. علينا أن نحميها.. اذهبي»

أصبّ غضبي عليها. أليست هي من يعرضنا لكل ذلك. أكره كيف تُخبر كل الناس بواقعة خطف أبي. الراهبات يعرفن القصّة كلها: متى خرج أبي صباحاً. الزّوادة التي كان يحملها. ماذا قال قبل أن يمشي. الساعات الطويلة التي انتظرناه فيها. ماذا قالوا في عمله. وكيف أنه لم يصل ذلك الصباح إلى عمله... هي الصامتة، لم أكن أستطيع أن أمنعها من سرد تفاصيل هذه القصة، لرفيقاتي، لرفاق أخي الدائمين والعابرين، للجيران، لصاحب الدكان، المستوصف.. دائماً أقسم ألا أذهب معها لأي مكان. تقول: «قد يكون لأحدهم يد خير فيساعدنا أو لديه معارف. الله وحده يعلم كم يكون أبوك الآن مشغول البال عليكم».

في البداية، أسمع همسهم حين أمرّ «أليست هذه ابنة المخطوف؟» كأنها لعنة، أو أذنب ارتكبته، فأغضب من أمّي، من أبي الذي فعل بنا ذلك.

أذهب مع نقولا جهة المعاملتين مع بدء العتمة. كلانا في ثياب رياضية. قلنا نمشي ساعة. نعتاد أن نلتقي كل يوم. عندما يتأخّر في العمل. نحكي معاً على الهاتف.

مشيته بطيئة. يتأخر عني لاهثاً بصوت يسمعه الجميع. أخفّف من سرعتي». لنتمشَّ، أقول، لا حاجة بنا إلى السرعة لسنا نشارك في الماراتون».

المجارير تفسد رائحة الموج والملح. الناس كثر في كل مكان. هنا كل الأمكنة ضيّقة.

نتعثّر بقضبان حديد في سيرنا بين البيوت وفيللات قيد الإنشاء أو الترميم. ابنة أخي تتذمّر كلّ خطوة. تريد أن ترجع إلى الساحة حيث مشاة يأكلون البوظة، ويتصوّرون، يركبون الدراجات، يشترون تذكارات. تقول: «لا شيء هنا غير التراب والغبار». ينبح كلب في حديقة بيت من طابقين. سيارة مكشوفة يهدر محرّكها فوق السطح. يقول نقولا إن هذه الناحية كانت جميلة، لكنها في الحرب دمّرت ونهبت ثمّ امتلأت بالمهجرين. نبحث بأعيننا عن البيت الذي ربما كانت تخدم فيه أمّي قبل زواجها.

كانت تقول إن له قرميداً أحمر وحديقة من الليمون والبلح والأكي دنيا. الكوى فيه مستديرة كالمراوح الكبيرة. حيطان داره من الصدف المطعّم بالعاج. على بلاطه رسوم زاهية لطيور وحيوانات.

لا نحكي عن ذلك أمام ابنة نقولا كما لم أذكر أنني فعلت أمام سالي أو رودي. تقول إن الخدمة صارت أسهل عندما كبرت وقسا عودها. تتعرّف بصبايا مثلها يخدمن في بيوت مجاورة أو في الأحياء القريبة في الأشرفية. يخرجن الأحد إلى القداس. يتمشّين في الأسواق. هنّ يصرفن الأجرة على الأقمشة وأكل السكاكر. يملسن شعورهن بالمكواة. يتصادقن مع الباعة وسائقي السيارات عند الموقف. تنتظرهنّ

قريباً من السينما، عند طرف مدخلها. تراقب الناس يدخلون إليها أزواجاً أو عائلات أو شباناً وحدهم بالطرابيش الحمر المكوية. أحياناً يطول انتظارها، تعود وحدها بخطى سريعة خشية أن يتحرّش بها أو يلحقها أحدهم. ما لا تعطيه من أجرتها لأمّها، توفّره لتشتري لاحقاً السوار الذي أضعة اليوم في معصمي. لم ينجب إسحق ليڤي وزوجته أولغا أولاداً. لكن زوارهم كثر، سفراء وأجانب يسهرون عندهم مرتين على الأقل في الأسبوع. كانت ترتدي لهذه السهرات ثوباً أبيض أوصت عليه الست أولغا عند خيّاطها الشخصي. له ياقة من التفتا، يضيق عند الخصر ثم ينسدل واسعاً حتى الكاحل، على حزام الخصر وردات زهرية وخضراء مصنوعة من قماش ناعم. الشعر ملموم في ضفيرة عريضة تصل إلى آخر الظهر. كلسات بيضاء تصل إلى الركبتين. لم تكن كل النساء متشاوفات، بعضهن يقول كلاماً لطيفاً للست أولغا عنها. رغم أنّ الست أولغا لا تعترف لأحد أنّ أمّي هي من تعدّ الطعام كلّه. يكفي أن يُعدّ طعام مرة واحدة أمامها كي تجيد صنعه كأنها كانت تفعل ذلك منذ سنوات.

يتبع تلك العشاءات لعب قمار يستمرّ حتى طلوع الشمس.

هناك أوقات هادئة تذكرها، حين تجلس في الحديقة قبل غروب الشمس، رائحة الليمون والبحر حولها، تطرّز للست حاشية ثوب أو ملاءة بطيور وزهور. تذكر الهدوء، صوت بعيد لعجلات الترامواي، الأنوار تشتعل شيئاً فشيئاً حولها. «لم أكن أجوع عندهم، تقول، الست أولغا امرأة لطيفة تملأ صحني على آخره». ما ينغص عليها هو نكسات جدتي الصحية. ترى أختها الكبيرة قادمة، تعلم أن عليها أن تحزم صرتها. عندما تبقى في بيت أهلها، تحسّ بالضيق، كأن العالم صغر

فجأة، تنام على فراش قرب أمّها المتوجعة، تساعدها على النهوض على الأكل، على دخول الحمام، طوال الوقت تفكر بأن عليها أن تعود إلى البيت، ثم تتنبه أن هذا هو البيت.

في بيت إسحق ليڤي تعرّفت على فرنسيس أبي. لا أعلم لماذا أتأثر هكذا فيما نمشي. أحسّ أنّ الطرق نفسها قطعتها منذ أكثر من ستين عاماً . رائحة الموج نفسها. ربّما البيت قائم في مكان ما. أية كنيسة كانت تقصدها؟ كيف نسيتُ؟ كم مرة سمعتها تحكي عن هذا البيت وتلك الكنيسة. كم كنت أكره تلك القصص. صارت منذ خطف أبي الذكريات الوحيدة العالقة في خيالها. أتخيّل الست أولغا كما تصفها: زرقاء العينين، فاحمة الشعر، غليظة الشفتين، معقوفة الأنف، قامة مهولة تُظهر زوجها كالصوص قربها. لذلك لا تنتفع أمي من الثياب التي تهديها إياها. وإلا يلزمها أن تقضي وقتاً في تقصيرها وتضييقها لا يسمح به عملها. ما يفرحها هو القبعة المزيّنة بريش ذات الحواف الرفيعة من مخمل أسود. تقلّبها متلمسة نعومة الريش والقماش. ليس بإمكانها أن تضعها، فهي ابنة من لتعتمر قبعة كهذه؟ ثم إنها في الكنيسة تلف رأسها بمنديل يُخفي كل شعرها. تلبسها، في مشاوير يوم الأحد؟ لن تناسب الثياب التي ترتديها. لكنها تتباهى بها. تريها لرفيقاتها. تزجرهن لكثرة ما يتلمسن المخمل، تقول سيبرى وستنقطع الوردة الحرير عند طرفها.

عندما ترى أبي أوّل مرة، يكون واقفاً أمام الباب، بالكاد سمعت طرقة مسكة الحديد على الباب. يتراجع خطوة إلى الخلف، عندما تظهر في فتحة الباب. يقول: «حضرة الست. أرسلني المعلم عبد الرحيم»، ثم يمدّ لفة فيها اللحم والعظام للمحشي وللملوخية.

القنصل يحب هاتين الطبختين. تردّ همساً بأنها الخادمة وليست

الست. لكنه يتجاهل قولها سائلاً كما طلب منه معلّمه: «الست تأمر بشيء آخر؟ لدينا اليوم سودا باب أوّل، ورقبة خروف طري كالهليون، وفوارغ بيضاء كالفل...» تدعه يكمل العد. لا تقاطعه، تعجب من ثيابه المهفهفة، إذ اعتاد الصبي الذي يحمل طلباتهم أن يأتي بمريول ملطّخ بدماء يابسة وأخرى حمراء قانية، فيما رائحة الزنخ تسبقه. هكذا بات يحمل طلباتهم شبه اليومية. الست أولغا تسأله عن اسمه قبل أن تدفع ثمن اللحوم المشتراة في أسبوع. «فرنسيس» يقولها بصوت قوي، لكن وجهه يمتقع خجلاً. تقول «مؤدّب» بالفرنسية. كلمة تفهمها أمي إضافة إلى كلمات كثيرة غيرها كانوا يستخدمونها. أضحك في سرّي متذكّرة ما يفعله نقولا بها.

دائماً اعتبرت نقولا رفيقاً لها. ليس لأنه يشبه أبي تماماً، لكنه يهوّن كل مشكلة. ننقطع من الغاز.«لا تحملي همًّا، غداً أجد قارورة من تحت الأرض». طبعاً، لن يجد وسنعاني كغيرنا. وسنحسد من لديهم حديقة لصنع موقدة. لا كهرباء، لا غاز، عندما تشكو قلة الماء، يغيب طوال النهار ثم يأتي لاهثاً، ينظر إلى وجهها ليرى فرحتها بغالون الماء. هي أيضاً لن تقول إن غالوناً لن يحل مشكلة الحمامات والجلي والاستحمام. إنه لا يكفي حتى للشرب. ستقول: «ليرضَ الله عنك يا ابني يا أبو الهمّة». لا طعام، يحضر علب سردين. لا كهرباء، يشتري شمعاً. يفعل ذلك كأنه وجد حلولاً سحرية لم يُسبق إليها. لا تفعل حينها سوى شكره كأنه حلَّ كل المشكلة.

تتذكّر أقارب الست أولغا كأنهم أقاربها. الفتيات سواء كنّ أصغر أم أكبر منها يعاملنها كأنها واحدة منهنّ. يستأذن لاصطحابها ناحية البحر لرؤية البواخر. يشاهدن أفلاماً مصرية، يسمِّين الممثلين، تعجبهن أثواب

الممثلة فتحفظ الموديل وترسمه لينفذه الخياط لهنّ لاحقاً. تحبّ لهجتهم، لهجة ممثلي السينما. يخبرنها عن الإسكندرية، عن فلسطين التي يقصدونها في الأعياد، عن أقارب في المغرب. تعجب كيف لا يخافون السفر هكذا في البحر. ماذا لو هبّت العواصف، أو تاهت السّفينة. كيف تعرف طريقها؟ لا عمار تستدّل به ولا بشر.

عندما نسألها كم كان عمرها آنذاك، لا تعرف. مرّة تكون صغيرة في الثالثة عشرة أو في الرابعة عشرة، ومرة أخرى في الخامسة أو السادسة عشرة. «كم بقيتِ عند إسحق ليڤي؟» «لم أكن أعد» تقول.

أعلم الكثير عن أمّي خلال سكنها عند نقولا. ليس بسبب اتصالاتي الكثيرة خلال تلك الفترة بل لأن الكلام الآن يأخذنا إليها دائماً. أحياناً تحاول زلفا تغيير الحديث. نسمعها ساكتين لنستأنف لاحقاً ما كُنَّا نحكيه.

يقول إنها لم تجلس إلا على كنبة واحدة في غرفة الجلوس، هي الكنبة الخشب الصغيرة المحاذية للرفوف الجدارية هناك حيث التحف. كانت زلفا تخشى على التحف من عكاز أمي. «على الكنبة العريضة سترتاحين أكثر في جلوسك» يقول لها نقولا. تردّ أنها لا تريد حجز حريتهم والاستئثار بالكنبة لنفسها وإلا أين يجلسون وكيف يتابعون التلفزيون.

ابنة أخي دارين تختلف مع أمي. تحرن فتشكو الأمر لزلفا. ترسلها إلى غرفتها إذ لديها تلفزيون فلم لا تتابع ما تريد عليه؟ تكره دارين حين تقول جدّتها. «عيب يا ستّي، لا يجوز أن تري هذه الأفلام، أنت صغيرة» تردّ حانقة إلى أنّها لا تفعل سوى مشاهدة كليبات غنائية. تختلفان على الحمام أيضاً. يقول نقولا إنّه دلّ أمّي ألف مرّة على حمّام الضيوف لتستخدمه، فهناك حمام له ولزوجته وآخر لدارين محاذٍ لغرفة

نومها. لا يفهم لماذا تعاند وتستعمل حمام دارين. غالباً ما يجد الجوّ مكهرباً حين يعود إلى البيت، يسألها لم تفعل ولديها واحد لها؟ لا تردّ إلا بعبارة كانت تغيظه «ما الفرق يا ابني؟».

المشكلة أنها تمكث في الحمام وقتاً طويلاً. مرّة تفقدتها زلفا، قرعت الباب مراتٍ إلى أن ردّت بصوت مخنوق. لما واربت الباب، وجدتها تزحف على بطنها ووجهها أصفر كالميتة. قالت لنقولا إن ركبتيها تخونانها أحياناً. يخشى عليها أثناء استحمامها، لا يفهم أيضاً لماذا ترفض مساعدة الخادمة. يقول نقولا «لماذا لم تقل إنها لا تستطيع الجلوس على المرحاض العالي في حمام الضيوف، لِمَ لم تقلْ إنّ عتبة الحمام عالية. ويشقّ على قدميها اجتيازها؟ لماذا لم تقل إنها تخجل من الخادمة؟ كنت ساعدتها بنفسي».

أحتار ماذا أفعل حين يلوم نفسه هكذا. هل ينفع أن أقول له إنّ لا شيء يمكن أن يبدّل ما حدث. يكمل كأنه يحكي وحده بأنه تعب كثيراً، عليه أن يحزر كل شيء. لم تكن تسعفه في أي شأن. حتى البرنامج الوحيد الذي تتابعه، لا تعترض حين يقلّب أحدهم القنوات. ألم تر أن لديهم أربعة تلفزيونات؟ لماذا لم تطلب؟ يكرّر حزيناً.

يشير بإصبعه قائلاً: «تجلس هناك مقطبة حاجبيها كأنها تجاهد لترى. تبتسم عندما تراني استيقظت. في عز الحرّ لا تخلع كنزتها. تطوي أكمامها عدة طيّات. أسألها متى نهضت؟ الجواب نفسه: من قليل. لا يصدّقها إذ لا تبدو وكمن نهض حديثاً. هو يحضّر فطورها لتأخذ دواءها. تأكل قضمة من سندويش اللبنة وتشبع. الحليب يثقل على معدتها تقول. يحثّها على الأكل لتقوى. لكن عند الغداء يتكرّر الشيء نفسه. تعزف عن

الطبخ وتشبع من لقمة زيتون وبندورة، تلوكها كأنها تأكل طعاماً جامداً لأوّل مرة. تأخذها إغفاءات قصيرة في جلوسها. اشترى لها أكثر من خمسة عكازات. العكّاز ذو القوائم احتجّت عليه زلفا لأنه يفسد أرضية الخشب. عكاز آخر ثقيل يُتعب حمله. آخر قبضته ركيكة، لا تحتمل الثقل... صمتها يتعب زلفا التي تتقصّد الغياب عن البيت طويلاً. دارين تقول أن ليس بإمكانها أن تستقبل أصدقاءها بسبب جدّتها. لا أحد من رفاقها جدته هكذا مثل جدتها.

تحاول في بداية سكنها عنده أن تقوم ببعض أعمال البيت. لكنّ زلفا تُفهمها أن هناك خادمة، لا داعي لتُتعب نفسها. رغم ذلك تصرّ على غسل ثيابها بنفسها. لا تطلب من أحد أن يشغل الغسالة. تنتظر خروجهم لتغلي ثيابها البيضاء وتغسل ثيابها الأخرى. تقول زلفا إن غسيل أمي ينقط ويملأ أرضية الشرفة ماء. هل تظن أمه نفسها أنظف منا، لم لا تعطيها لشاندرا كي تضعها في الغسالة؟ يسألها، فتجيب: «الحركة جيدة يا ابني. الجلوس طويلاً يؤذيني. لست معتادة على الجمود مكاني». أحياناً يأتي إليها غاضباً، يخرج الكلام جارحاً، لكنه حين يسمعها ويراها يتمنى أن يختفي عن وجه الأرض. أراضيه. أفكر أن أخي الكبير يصير أصغر من ابني كأنه قشة تقصفها الريح.

يذكر جيّداً تلك الليلة. كانا مدعوين إلى عرس واحد من أقارب زلفا، يذكر الرياح تطيّر ثيابهم ومعاطفهم. تفسد تصفيفة شعر زلفا. يذكر صعوبة القيادة إلى برمانا. المطر يعنف. المساحات تعجز عن تنظيف الزجاج بالسرعة اللازمة. وقف عدة مرات عند جانب الطريق. لم يكمل سيره إلا بعد أن خفّت الأمطار. زلفا كانت مستاءة لأنه تأخّر في إخراج سيارته من الموقف، ففعل الهواء فعله بشعرها. ثمّ هذا الوقوف وهذا

التأخير. ماذا سيقول أقاربها عنها. «ليلة منحوسة من أوّلها» يقول.

عادا فجراً. سمعا أنيناً خافتاً جهة غرفتها. رائحة كريهة تعبق من الممشى. زلفا تراجعت ودلفت إلى غرفتها. رآها تضغط بكلتا يديها، لكن جسمها لا يرتفع شبراً عن الأرض. داخل غرفتها، الرائحة أكثر فظاعة بعد. حاول رفعها. دموع تكرج صامتة فتبلل وجهها وعنقها. تشيح بوجهها. تشير له أن يبتعد. لكنه لن يفعل. يوقظ الخادمة لتساعده في تنظيفها وإلباسها. ينشغل باله من أن تكون قد كسرت حوضاً أو قدماً. لن يطمئن إلا بعد أن تقف في المغطس ولو متمسكة بعمود الستارة.

كانت تريد دخول الحمام عندما تعثّرت. نادت دارين وشاندرا فلم تسمعاها. ساعات تسعى للزحف والوصول إلى الحمام. «أريد يا ابني أن تجد لي مأوى». لن تسمع اعتراضه. كان انكسارها يفطر القلب.

«ليست نهاية العالم إن وسّخت ثيابك» يقول. تردّ كأنها لا تسمع ردّه «المأوى ستر يا ابني».

تسأله زلفا: «ماذا لو صارت توسخ ثيابها، وتعجز عن دخول الحمام، من سيبدّل لها. الخادمة بالكاد تلبّي طلبات البيت. لا تستطيع أن تخدمها أيضاً».

أستغرب أن يخبرني كل ذلك. ماذا لو سمعته دارين أو زلفا.

رأيت أمي الليلة الماضية صبيّة، تمسك بيدي فيما نجول في سوق قالت إنه سوق الطويلة، بلى هذا اسم الشارع. بدت سعيدة. وقفنا عند الواجهات. كم كان عمري؟ ربما ست سنوات. أشارت إلى ثوب أبيض للشعانين. قالت إن الثوب سيعجب أبي، وسأبدو فيه كالملاك. يتبدّل المكان. نصير أكبر. نمشي في شارع معتم. ساتر ترابي نحاول تسلّقه. تنغرز أقدامنا بالتراب فنعجز عن تحريكها. تقول: «عجّلي قبل أن تعتم

أكثر. كيف سنجد طريقنا إلى البيت؟» الظلام كالتفل. لا نسمع سوى أنفاسنا. طلقات نارية تلعلع بعيدة ثم تقرب. التراب يقسو كأنه باطون. فجأة يختفي صوت أنفاسها. يدها تجمد باردة في قبضتي. لزوجة تسري. أحدس أنه دم. رطوبته تلطخ رجلي، أصرخ، فينهال التراب داخل فمي.

أرفع كل أغطية الكتّان عن الكنبات والأثاث، من يخاف عليه بعد كلّ هذه السنين؟ الألوان فقدت رونقها، الخشب بهت وعشّش في تخاريمه غبار كثيف. الحنفيات تنقط وتُحدث أزيزاً عند استخدامها. الأعشاب نبتت في بالوعات الشرفة. بورسلين الحمامات الأبيض صار رصاصيًّا. لم تُبدّل المبيضات وسوائل التنظيف شيئاً من لونه الكابي. الصدأ يبين في أرض المغطس وجوانبه. الطلاء ينقشر طبقات ويسقط فوق البلاط. أشغل نفسي في تنظيفه.. يستدعي البواب سمكريًّا لإصلاح بالوعة المجلى المسدودة. كان العمل حتى الإرهاق هو مهربي دائماً. البيت بحالته هذه منبع للأشغال. السمسار يرى أنّ السعر المطلوب لبيع البيت مبالغ فيه، الناس حين يرون حالته يتراجعون. لا أحد يحبّ أن ينشغل بورشة عمل وترميم. بإمكانهم بهذا المبلغ شراء شقة جديدة لا تحتاج إلى إصلاحات، يقول. اسمعه دون أن أقول إن الأمر لا يهمّني. تنسى ناديا أنّ الأسعار في لبنان مختلفة عمّا هي عليه في واشنطن. حتى لو كان البيت في أفضل الشوارع ومساحته كبيرة، هو بحاجة لإمدادات جديدة لتبديل حماماته ومطبخه.

عندما أحلم بيتاً في مناماتي، يكون مزيجاً من الشقة التي سكنتها مع أنطوان في أوّل زواجنا ومن شقة أهلي. لا يفهم أنطوان كيف أحكي

بحنين عن شقتنا الأولى، يتساءل باستغراب «تلك الشقة الكئيبة؟!».

أوّل وصولنا سكنّا في بناية كبيرة. فيها عشرات من الشقق. كنّا في الطابق الثاني، شقّة مؤلفة من غرفة جلوس واسعة وغرفتي نوم ضيّقتين. في الأولى وضعنا سريراً كبيراً. الثانية حوّلتها غرفة لي. خطت وجوهاً لطرّاحات وزعتها فوق الموكيت. على الجدار، علقت بساطاً هنديًّا كبيراً. فيها كنت أخيط ثياباً لسالي قبل أن تولد.

تدخلها الشمس معظم النهار. من شباكها تبين أغصان الصنوبرة وترسم ظلاً مخرّماً على الجدار أمامي. هواء عذب يدخل فأغفو جالسة. يكرّر أنطوان كلما رآني حاملة الغسيل إلى غرفة الغسيل في الطابق السفلي: «لا تزعلي، قريباً جدًّا سيكون لك بيتك الواسع ولن تغسلي ثيابك في غسّالة العموم»، يظنني أخفّف عنه حين أقول إن السكن في البناية يعجبني.

أذكر مساءاتنا. نترافق في سير طويل. نجلس في الحديقة. أو نذهب إلى السينما، ثم نتوقّف قرب المطاعم الصغيرة أو العربات في الشارع. نأكل سندويشاً ضخماً من الهوت دوغ والهمبرغر أو الشورما اليونانية. يعجب أنطوان من إقبالي النهم على أكل الهوت دوغ، يظن أنّها عوارض الحمل. لا أقول أنني اكتشفت الهوت دوغ حديثاً، لم يسبق لي أن أكلت منه. شجر كثير أينما نمشي. كأنها غابة نثرت فيها بضعة مبانٍ وبيوت. الناس لطفاء في كل مكان، في البناية في الشارع... يقول أنطوان إن إحساسي ليس صحيحاً. أتوهّم ذلك بسبب الضغط الذي عشته في طفولتي وشبابي.

الذين نستضيفهم آنذاك قلائل. معظمهم أشخاص يحاول العمل معهم وتأسيس شركة. لم نكن نناقش معاً موضوع المال أبداً. رغم أن

إنفاقه الكثير أحياناً يقلقني. ما حاجتنا لهذا العدد من ملاءات السرير، من المناشف، من ثياب النوم، من مختلف أحجام الطناجر. البراد يمتلئ بأصناف من الأجبان لم أرها في حياتي. كنت أعرف الحلوم والعكاوي. قوالب صفراء أو بيضاء ملفوفة بأوراق ملوّنة شفافة. لكن من يأكلها؟

بداية يقوم أنطوان بشراء أغراض البيت. يحثني على الخروج لأسلّي نفسي وأشتري بنفسي ما يلزمنا، لكنني أرفض. شهور أعجز فيها عن النطق إذا لم يكن الكلام باللغة العربية. أخجل من إنكليزيتي المتعثّرة. أسمع أنطوان يتكلّم بسهولة فأحسّ بأن الجميع سينظرون إليّ ما إن أفتح فمي. تشجيعه لي يزيدني بكماً. يأتيني بشرائط مسجلة لتحسين لغتي. على هذه الشرائط كل ما يحتاجه الشخص في حياته اليومية: للشراء، للاستدلال على مكان، لتبادل عبارات التحية والمجاملة... أسئلة تختص بالمطاعم، بالمطارات، بالشوارع، بالمكتبات. لا أقول إنني أعرف كل ذلك. يظنني إذاً جاهلة، أفكر. أحسده على قدرته في الكلام في أي موضوع وكيف هو بارع في الاهتمام بأشخاص لن أكتشف إلا لاحقاً أنه لا يطيقهم. يشجعني على تجاوز حذري.

أوّل مرة أضطر فيها للتكلم فعلاً بالإنكليزية كنت فيها في متجر ضخم. في أحد الممرات، وقف ولد في الرابعة متكئاً إلى أحد الرفوف يبكي، في يده المدلاة لوح من الشوكولا لم يأكل منه إلا قضمة. يتعالى نشيجه فيما ينظر حوله بهلع.. اقتربت منه على مهل، قلت له إننا سنجد أمّه حالاً لكن عليه أن يكون شاطراً ويقول اسمها... يتفحصني دون أن

يتوقف عن البكاء، انتظر مقرفصة لأحاذي قامته. يكرّر اسمها بين دموعه.

كان اسمها يتردّد عبر المكبّر. يده المستديرة تشدّ يديّ فيما راح يقضم قطعة أخرى من لوح الشوكولا. هي الحادثة التي فكّت عقدة لساني. عندما أخبرت أنطوان، قال إنّ عليّ أن أنتبه.

الناس هنا شديدو التوجّس. ليس بإمكاني التقرب من طفل والكلام معه. من يرانا يعتقد أنني أقوم بخطفه، وأنّ عليّ أن أترك الأمر لمسؤولي الأمن في المتجر.

بدءاً من الشهر الخامس في الحمل أتغيّر. لا أنام في جلوسي ولا أغفو ما إن تحلّ العتمة. كأنني كنت نائمة سنة كاملة واستيقظت. يدبّ فيّ نشاط لا يهدأ. تكثر نزهاتي في الشوارع. أحبّ هذه الأشجار المزروعة في كل مكان، قرب الأرصفة، بين البنايات أمام مواقف الباصات، قرب المتاجر، على السطوح أحياناً. هكذا أكتشف مناطق بعيدة عنّا، أحكي لأنطوان عمّا شاهدته. يومئ برأسه تعباً.

عندما يدعو أحدهم، ينظر إلى ما حضرته. يغضبه الأمر في البداية يقول إنه لا يفهم إصراري على تحضير كميات قليلة من الطعام. ألا يعطيني ما يكفي للتسوّق؟ أقول إنها أكثر من كافية، ثمّ هناك أصناف متنوعة. حرام أن نرمي الطعام. هكذا أجدني أستعيد عبارات أمي نفسها دون أن أنتبه «البطر بشع».

يزعل من الثياب القديمة التي أرتديها في البيت. يشير إليها قائلاً: «هذه للنفايات لا لوضعها على جسمك. غداً سنشتري كل ما تريدين». أردّ على الفور بأن خزانتي لا تتسع لمزيد من الثياب، لديّ أكثر مما أحتاج.

أذكر أمي في تنورة كالحة اللون، أراها فيها سنة بعد أخرى. عندما تتمزّق أطرافها أو يرقّ قماشها ويشف، تحوّلها إلى فوط لمسح الغبار أو شيّالات لحمل الأغراض الساخنة. قصاصات الأقمشة تجمعها لتصير لاحقاً حشوة وسادة أو طرّاحة. الثياب الجديدة للأحد، للخروج من المنزل، للعيد أو للذهاب عند طبيب. قمصان نقولا تتحوّل عندما يهترئ قماش قبتها أو أكمامها إلى بلوزة لي. كذلك يحصل للبنطلون. تستخدم قماشه لتصنع تنورة لي ضيقة عند الخصر ثمّ تتسع على شكل ثمانية لتصل عند الركبة. تخيط جزادين قماش صغيرة أو حقائب لكتبي.

يقلّب نقولا حذاءه الذي ثقب نعله. يسألها مازحاً: «هذا يا أمي سيعصى عليك، كيف تصلحينه؟» أخجل من الثياب التي تجعلني أرتديها، ثياب لا تشبه ما يرتديه الناس، موديلها غريب كأنني من كوكب آخر.

أكل اللحم أيضاً يجب أن تكون له مناسبته. «يفقد طعمه عندما يؤكل كل يوم»، تقول أمي تعليقاً على الأطباق الخاصة التي تطلبها رئيسة الدير منها.

«كل يوم لحم.. لحم كأننا لسنا بشراً. ماذا يطبخون في الأعياد إذاً، في حفلات المعمودية وفي الأعراس؟ حتى يوم الجمعة تريد لحماً سمعت راهبة تأكل لحماً يوم الجمعة وليس طبخاً قاطعاً بزيت!

السيّارة تتوقف طويلاً في طوابير لا آخر لها. يغلق نقولا الشبابيك ويشغِّل المكيف. ينظر إلى ساعته كلّ بضع دقائق. يخاف أن نتأخّر على كاتب العدل. يطلّ السائقون برؤوسهم لاستطلاع ما يحدث. لا نسمع الضجيج بفضل التبريد. رغم قرصة البرد لا أطلب أن يطفئه. البرد أرحم من الزمامير وضجيج المحرّكات. جرّافة تحفر عرض الشارع. ممرّ ضيّق تُرك لأرتال السيّارات.

بناية قديمة لا مصعد فيها. نصعد على أدراجها حتى الثالث. نتوقّف طويلاً عند صحن الدرج لنلتقط أنفاسنا. البلاط قديم مائل إلى الأصفر منقط بالأسود من النوع الذي ما عدت أرى مثله. زحمة في غرفة الانتظار. نقف قريباً من الباب إذ لا مكان لنا على كنبات جلدية، تفسّخ جلدها البنّي وبانت حشوة الاسفنج. الحاجب يحاول أن يُفهم عجوزاً أن ليس بإمكانه أن يوقّع بدلاً من أولاده الراشدين. لكنّ العجوز يستمرّ بالقول: «هم موافقون، وأنا أبوهم. ما الذي يضرّك أنت؟» يغضب الحاجب، يطلب منه ألا يعود ثانية إلاّ مع أولاده إذا أراد أن تصبح الورقة قانونية.

الموعد لا يُنجينا من الانتظار. «دقائق ويكون معكم. مشغول الآن بإنهاء معاملة»» ننتظر متكئين على الباب. من أين يتدفّق كلّ هؤلاء. أسأل

نقولا إن كان هذا الرجل هو الكاتب العدل الوحيد في كل بيروت؟ لن نخرج من عنده إلاّ بعد ساعة أو أكثر.

لم أعلم بأننا نملك هذه المساحة من الأرض. ظننتها قطعة صغيرة، تصلح كما قال عبدو لإنشاء بنايتين. يقول نقولا إنّ الأرض الصالحة للبناء صغيرة المساحة، الأخرى عبارة عن جلول تتدرّج بالانحدار نحو أسفل الوادي. لا البناء يصلح فيها ولا الزراعة.

غريب أن تُدفن أمّي في ضيعة لم تنشأ فيها ولم تعش فيها. تزوّجت شخصاً متحدّراً من هناك، حتى هو لم يوارَ في مدافنها ولم يرقد قرب أمي.

عندما تزوّجا، جاء جدي لأبي ليعيش معها في بيروت، عمتي التي كرّست حياتها من أجل جدي الأرمل، تريد أن ترى نفسها تقول. من سيلمّها في آخرتها؟ هذا واجب الابن وليس الابنة. هكذا تزوجت من رجل أكبر من جدي نكاية بأخيها فرنسيس كأنه بزواجه أذلّها وأهانها. تخبرنا أمّي إنها لم تجد صعوبة في التفاهم مع جدي منذ أوّل سكنه. أحبّ طعامها. ودعا لها ليل نهار بالخير. يقول لفرنسيس: زوجتك ابنة حلال، تعاملني أفضل من أختك الملعونة التي لم تسأل عني، ولم تحترم شيبتي، البنات بنصف عقل. لكنه توفي بعد أشهر بسكتة دماغية، أثناء نومه. راحت عمّتي تُشيع أنّ أمّي عذّبته وأهانته. فلم يحتمل قلبه وفقع وهو بعزّ الشباب. لم أكن قد ولدت بعد. لكنّ أمي ستظل تردّد هذه القصص. ستحفظها. أحياناً تضيف عليها أو تحذف أو تطيل مدة بقاء جدي عندها.

لا أذكر أننا كنا نذهب إلى الضيعة. حتى في عزّ القصف، لم نفعل. يحكي نقولا كعبدو عن مشروع الشقق. يبني عليه آمالاً في حل

مشاكله المادية. لو أنّ أمي باعت هذه الأرض واشترت شقتها، أفكر. لم ترد أن ترث أبي «نرثه وهو حي. ما هذا الكلام الأخوت الذي يقوله عبدو. نسي أنه الآن كبير العائلة. يتصل من السعوديّة ليقول لي هذا الكلام؟» يبكيها قوله طويلاً. تحكي وحدها فيما تعمل في البيت، أفاجئها تخاطب أبي بصوت هامس. تسكت ما إن تلمحني. وقت طويل سوف ينقضي قبل أن يهدأ خاطرها.

لم أكن أدري كيف تفعل لتصرف على البيت. المبالغ التي يرسلها عبدو متباعدة، أحياناً تذهب كلها على قسطي المدرسي، على مصروف نقولا والإيجار وفواتير أخرى.

كان نموّي السريع مصدر قلق بالنسبة إليها. لم آخذ عنها قصر القامة. كلّ بضعة أشهر تضيق الثياب وتقصر فلا ينفع معها أي تصليح. في أقلّ من سنة طالت قامتي وصرت أطول واحدة في صفي. ثيابي الطفولية ذات الكشاكش والأكمام المزمومة عند الزند ما عادت تناسبني. هكذا أذكر مشواري معها إلى محّلات الثياب بعد جدال وبكاء «لا أريد الذهاب معك. الآن ستشترين لي أشياء كأنني في الخامسة أو في السبعين» أقول محتجة على ذهابي برفقتها.

«لا اشتري ما تريدين، أشيري بإصبعك إلى المحل الذي سندخله ولن أعترض».

كان يوماً مزدحماً بالناس، سبقه أسبوع هادئ تتخلله مناوشات قليلة في الأسواق، لم تعكّر صفو الخارجين من بيوتهم بعد طول أسر.

كان عيد الفصح يقترب. فازدانت المحلات ببيض شوكولا من كل الأحجام، زينة جميلة لسلل القصب. أوراق ملونة لُفّ فيها البيض فبانت من خلال الواجهات كأنوار تومض بالفضي والذهبي والأحمر. نتأمل

كلتانا الصيصان الصغيرة التي لوهلة خلناها حقيقية.

أدخلتها إلى محل في مار متر. أسمع رفاقي يحكون عنه. وقفتْ قرب غرفة القياس. تنتظر خروجي مرة تلو الأخرى، أجرِّب التنانير والبنطلونات التي تختارها البائعة لي. لم تعلّق أمي على ما أقيسه كما وعدت. كما لم تهزّ الخصر لتتأكد من أنه واسع كفاية لأرتديه لسنوات قادمة. لكنني بعد أن انتقيت قميصاً بأكمام واسعة احترت بين بنطلونين لا أعرف أيهما أختار. يخفق قلبي ماذا لو كان سعرها غالياً. كيف ستتصرّف أمي؟

تلحظ حيرتي. تقول: «لا تحتاري، سنشتريها كلّها، لا تحملي همًّا. «كم سعرها؟» تسألني. تقول البائعة: «مئتان وأربعون ليرة». أقترب. تخرج جزدانها القماش، تفك ربطته. تناولني الورقات مطوية واحدة واحدة بعناية. تبدأ بفئة الخمس ليرات، ثم الليرة. أخطئ في العدّ تقول: ولو يا بنتي أنت متعلّمة ألا تجيدين العدّ؟ أقول إنها غالية وأفضّل أن أشتري من محلّ آخر. لا تردّ. نعاود العد. حتى نصل إلى العملة المعدنية الموضوعة في كيس آخر مزموم بمطاط. أحسّ أنني أختنق. البائعة تلتفت نحونا بين الحين والآخر وتغمز رفيقتها.

مجموعها 210 ليرات: أشدّ أمي من يدها حتى أؤلمها. أريد أن أخرج أقول، لا أريد أن أبتاع أي شيء. «اهدئي يا حبيبتي يمكن أن تحسم لنا سأسألها» هكذا رغماً عني تقترب من البائعة. «معي 210 ليرات، لا أحمل غيرها يا بنتي لم يعد معي حتى أجرة الطريق».

أسبقها إلى الخارج. دموع تطفر من عيني رغماً عني... أفكّر أنّ لا شيء سينسيني هذه المهانة. تناولني كيس الثياب سعيدة لأحمله. أسبقها بسرعة كأنها فعلت بي أسوأ ما يمكن تخيّله. حتى عندما تعثّرتْ وهي

تحاول اللحاق بي، لم ألتفت. تقول في ظهري: يا ابنتي، انتبهي من السيّارات.

أحياناً كانت تعود مع صرّة فيها ثياب. أعلم أنّ مصدرها الدير. تبرّعات تجمع لإغاثة منكوبي الحرب، تغسلها. تكويها. تعدّل طول بعضها أو موديلها. لا تجرؤ على القول بأن أجرّبها. تعلّقها في الخزانة. كثيراً ما ينتهي بي الأمر إلى ارتدائها. أجدها في الأخير أفضل ممّا ألبسه. كما أنّ هذا يعفيني من الذهاب معها للتسوّق.

كان أبي يذهب برفقتها إلى سوق الأقمشة. يقول لها: «يا روز اختاري كلّ ما تحبين. تليق بك الألوان الحلوة. ابتعدي عن الأسود والبني». تصف جمال الحرير، نعومة المخمل والتافتا. تسألني «أتذكرين ثوبي الزهري المورّد، ذاك الذي خطت له جاكيتاً بيضاء قصيرة فوقه؟ كم كان أبوك يحبّه. أتذكرينه؟».

لا .. نسيت كنتِ طفلة.. هكذا تخاطب نفسها حين نجلس متجاورتين متلاصقتين في زاوية الممشى خوفاً من تناثر الشظايا..

أمشي ووشاح رقيق من العتمة يغمر الشوارع. ضوء أصفر يتخلّل الغيوم شيئاً فشيئاً. تشع بألوان من الفضي والأزرق الداكن. الهلال رفيع أبيض. أسمع دعساتي وخطوات بعيدة عني. مشاة في أعمار مختلفة ينتشرون على الأرصفة. فتاة تركض في شورت قصير وقد تلوّن جلدها الأبيض ببقع حمراء. السمّاعات في الأذنين، قنينة ماء صغيرة في اليد اليمنى. الكبار يمشون ببطء كأن ركبهم لا تنثني. يذكرون أسماء ربّما هي لأبناء أو جيران. أسمعهم حين أحاذيهم لكنني لا أفهم ما يقولون. أفكّر أنّ أمي أصغر منهم. أرى شبهاً بينها وبين كثيرات: الشعر، النظرة المشية، لكنها كانت أجمل.

أخي نقولا تحمّس لفكرة السير، لكنه لا يستطيع لا صباحاً ولا مساءً بسبب العمل أو التعب أو عدم توفر الأمكنة المناسبة.

المشاة يعرفون بعضهم. يتبادلون التحية أو السؤال عن الصحّة. السيارات تكثر مع طلوع الضوء. هررة تتمغط في فيء شجرة أو عند مدخل بناية. أحدّق في الوجوه. العجائز يبتسمون ربّما يخافون أن أكون شخصاً يعرفهم ونسوه. الصغار يرتبكون. لم أكن لأنتبه لهذه العادة لو لم ينبّهني أنطوان. ملاحظة ستضحكني بداية، لاحقاً سأدافع عن نفسي بالقول بأنني أتأمّل كل شيء بما في ذلك البشر، فأين الغرابة؟

هنا لا أرى أي وجه أعرفه. أيعقل ذلك؟ ألم أكن في مدرسة فيها أكثر من ألف تلميذة. ألم أعش طفولتي وشبابي في حيّ لا أعرف سكانه فقط بل سكان الأحياء المجاورة. كم عائلة عرفت في الملجأ؟ ورفاق نقولا؟... كأني لم أكن. لو ألتقي رفيقة هل تعرفني؟

في بيتنا الأوّل. كنت أمشي طويلاً، أحفظ علامات أستدل بواسطتها على طريقي كما كانت أمّي تفعل. لاحقاً سأتجرأ واستعمل الباص لأذهب إلى وسط المدينة. سأخبر أنطوان، قبل أن يدخل البيت حتى عن اكتشافي لفرن يبيع مناقيش بزعتر وفلافل وخبزاً عربيًّا يسمّونه هم Pita Bread «لم يمضِ وقت طويل لتشتاقي إلى الأكل اللبناني» سوف يقول.

«لا تنظري هكذا» يزجرني عندما أحدّق في وجه شخص أسود. ما الذي يزعجك أسأله. «لم يسبق أن رأيت أشخاصاً سود البشرة بهذا العدد. أحبّ أن أرى كيف هي وجوههم».

يسكتني خشية أن يسمعنا أحد. أذكّره أن لا أحد يفهم العربية. ما أدراكِ؟ يقول ألا تلاحظين كم فيها من عرب؟

لا لم ألحظ، ما أراه هو إنّ هناك كوريين وصينيين وسوداً أكثر من الأميركان. يضحكه طويلاً قولي فيسألني: «ومن هم الأميركان برأيك؟ هم من ذكرتِهم».

هل أحسّ أبي مثلي حين نزل من الضيعة إلى بيروت؟ يضحك أمي كثيراً عندما يصف بيروت على أنها بلاد يضيع فيها الواحد لتشابه أحيائها وشوارعها ومنازلها ولكثرة ناسها. ناس كالذباب، يقول. تعرفها ككف يدها، تمشي فيها مغمضة العينين، تدعي، فرحةً بأنها تتفوّق عليه في ذلك.

نزل وهو في السادسة عشرة، لا أرض لديهم كغيرهم ليزرعوها قمحاً أو زيتوناً أو خضاراً. عمل والده شبه مشلول، من معه مال ليبني، ثمّ إنّ معظمهم يبني بيته وحده أو بمعونة الأقارب. هكذا قرّر في أقل من أسبوع. حمل سلاً فيه مونته من زعتر وزيت وزيتون والقليل من البيض وأكثر من ثلاثين رغيفاً. كثيرون غيره تغرّبوا ووجدوا أعمالاً. كتب على ورقة عنوان قريبه قزحيا، خبّأ الورقة في زنّار قماش يلفّ خصره، فيه بضعة قروش. قزحيا قريب بعيد لهم، يقال إنه دبّر أمره، يسّر الله أحواله، وصار مقصوداً يساعد ويُشغّل كثيرين.

مشى عند الفجر يرافقه أبو ديب الذي لم يسمع من ابنه أي خبر، ولم يرسل لهم منذ الميلاد أي قرش.

طريق طويلة يقطعانها على الأقدام. يجلسان في فيء زيتونة يتقاسمان فيها زوادة أبي، ثم يبحثان عن عين أو نبع ليشربا. أبو ديب لم يحمل في جبته سوى تين يابس. بدل أن يكون دليلاً لأبي في بيروت التي يدعي معرفتها. اضطر أبي لملازمته. لا يعرف لا اسم الشارع ولا اسم المطعم ولا اسم مالكه. قال له أبي «الصباح رباح. الآن نذهب عند قزحيا نبيت ليلتنا. ربّما يعرف ديب. إنْ لا، نبحث في المطاعم، ليس إبرة ليضيع» لم يكن يعلم أن في بيروت الكثير من المطاعم.

لا يصل إلى المرفأ إلاّ والليل قد حلّ. يرى صناديق حديد ضخمة تتوزّع على طول الشط ولا يلمح أي بيت. أتكون هذه البيوت؟ كيف يكون عنوانه هنا؟ الناس الذين يسألهم لا يعرفونه. حتى في تلك الساعة المرفأ يعجّ بالأصوات والحركة. صوت البابور يرهب قلبه. يتمسّك أبو ديب به ويقول معاتباً: «الظاهر يا ابني ضيّعت بالعنوان» يكظم غضبه احتراماً لشيبة الرجل. لا يجد قزحيا إلاّ بعد أن أنهكه التعب والجوع.

يجلسهما قرب أحد العنابر. يغيب ليأتيهما ببطانيتين رصاصيتين. لم يعلم أن نومهم سيكون في العراء قريباً من أحد العنابر حيث ينام قزحيا وحمالون آخرون. جلسوا وأكلوا من الخبز والزيتون الذي يحمله. لم ينم ليلاً لا بسبب البرغش الذي أكلهم أكلاً بل لأنه أيقن أن عليه الاعتماد على نفسه. كيف يساعد قزحيا أحداً وهولا بلا سقف يحميه؟

قبل الفجر لكز «أبو ديب». قاما ليبحثا عن ديب. مطاعم الفول المدمس والكوارع والشواء والأفران تتلاصق في السوق. روائح تزيد من خواء معدتهما. لا أحد سمع بديب. عند الظهر بينما يواصلان البحث، يعلو صراخ، ويصطدم بأبي صبي في مريلة ملطخة بالدم، يركض ويركض، للحظة ظنّ أبي أن الصبي قاتل. لولا اللحام الراكض في أثره لصرخ مستنجداً. اللحام يركض في يده ساطور يصرخ:

«يا ابن الحرام، يا ابن الكلب يا حرامي» لكن ثقل جسمه وكرشه الكبير منعاه من اللحاق بالصبي الذي اختفى عن الأنظار في لحظة. هكذا يصير أبي «صبي لحام» من دون أن يجد ديب.

عندما خُطف أبي صعب عليّ أن أفهم بالضبط ماذا يعني ذلك. أمي تشرح لي إنه في غرفة يأكل مثلنا وينام ويسمع الأصوات نفسها. لكن لا يسمحون له بالعودة. «من الذي يغلق عليه الباب؟» أسألها. لا تجيب. لاحقاً صرت أفكّر أنه تركنا ولم يخطفه أحد. اعتدت أن أسير وعيوني تستطلع الوجوه. أريد أن أرى أبي قبل الجميع. أريد أن أركض بكل قوتي، أصعد السلالم في لحظة وأقول: «ماما، أبي رجع». حلمت طويلاً بهذه اللحظة. كبرت فتغيرت الأمور في رأسي.. أبعد عن مخيلتي قصص التعذيب التّي أسمعها في المدرسة، في الملجأ في الدكان. أقول ربما فقد ذاكرته ولم يعرف طريقه، الأسر أنساه كل شيء. لكن نحن

نعرفه إن صادفناه. صورته راحت تبهت ملامحها في مخيلتي سنة بعد أخرى وتملكني خوف من أنني لن أعرفه حتى ولو حدّقت في عينيه.

الشمس كالبرتقالة صغيرة. تصعد على مهل من خلف التلة. غيوم كثيفة تخفيها. إنه الربيع لن تمطر أفكّر. في كليفلاند تمطر في عزّ الحر. أوّل مرة رأيت فيها حبال المطر لم أكترث إلى أنني حامل. مشيت فيما المطر الساخن يغسل شعري يبلل ثيابي فتظهر بطني منتفخة، وتروح سالي ترفسني لأوّل مرّة.

رائحة الياسمين يحملها هواء بارد. أشرب كأساً من الفودكا والعصير مع الكثير من الثلج. شعور بالراحة كأن في رأسي ماء صفحته زرقاء رائقة.

نظّفت خزائن المطبخ. والخزائن الجدارية أعدت ترتيبها. بعض الأغطية القطنية فتّ بين يدي كالطحين. تركت ناديا في قعرها معاطف من الجوخ السميك، جزمات بكعوب عريضة وعالية. أوضّبها في أكياس لأعطيها للبواب إضافة إلى بدلات لزوجها. لن أسألها. ما حاجتها لأغراض كانت تملكها منذ عشرات السنين. الأغرب هو معلبات الحمص واللحم والطون. غبار وصدأ كثيف يغطيها. أمسحها لأقرأ عليها أسماء شركات ومعامل ما عادت موجودة. في الجوارير، أجد رسائل لزوج ناديه من أهله. كتبوها له حين كان يتعلم في لندن. معظمها بالعامية. جوازات سفر، صور لنادية ولزوجها في الطفولة، في حفلات التخرّج. صور لنادية مع خطيبها الأوّل قبل أن يقتل. شعر طويل، لحية شقراء. ناديا قربه تضحك، ترتدي قميصاً واسعاً فوق بنطلون جينز بحزام عريض وبكلة زرقاء تحت الخصر، رأسها ملقى على كتفه، أحزر من المباني خلفهما أنهما جالسان عند سياج الجامعة الأميركية. الصورة أضعها في حقيبتي. رودي سوف يفرح بها.

يرنّ الهاتف. أجفل كالعادة. دائماً أخشى رنينه، لا اعتاده أبداً.

- ألو، بريجيت معك. تقول حماتي.

- أهلاً، كيف الأحوال؟

- ماشية... الكل هنا يريد أن يراك، سوزان زعلانة، كذلك عمّك، ما هذه العزلة؟

- المسألة أنني متعبة قليلاً.. مشغولة أيضاً، أساعد ابنة أخي في امتحاناتها. أندم ما إن أذكر هذه الحجة.

تقول بصوت بارد: N'exagere pas

- ماذا؟ أسألها مدعية عدم فهم ما قالت.

- أريد أن أقول إن العشاء وتبديل الجوّ لليلة سيكون جيّداً..

- ربّما لاحقاً سوف أرى.

- Comme tu veux , je ne peux pas te forcer.

- سلّمي على عمّي وعلى سوزان وعائلتها.

أقفل السماعة. الثلج ذاب في الكأس. لم يبق منه إلا دوائر صغيرة تطفو على السطح. أفكّر أنها لم تتبدل. النظرة نفسها ترمقني بها منذ عرّفها عليّ أنطوان أوّل مرة.

رغم إجادتها للانكليزية واستخدامها لها مع الكل. أمامي لا تتكلّم إلا بالفرنسية. عبارات صرتُ أفهم معظمها مع الوقت. بعضها لشبهه بالإنكليزية وبعضها أفهمه من حركاتها وملامح وجهها.

يستولي عليّ القلق ما إن أعلم بزيارتهما لكليفلاند، صحيح أنهما ينزلان دائماً إمّا في شقّة مؤجّرة أو في فندق، لكن رؤيتهما كل يوم والارتباط معهما بمشاريع يفسد الرتابة التي اعتدتها في عيشي.

تأكل من حلويات أعددتها، أو تتأمّل لوحات علقتها أو آنية قمت بالرسم عليها تقول بالفرنسية لأنطوان: عافاك، شجّعها. عندما تصرخ سالي مطالبة بلعبة أو حين ترفض ما أقوله، تنظر حماتي بطرف عينها إلى أنطوان لتقول بالفرنسية طبعاً إنّ عليه أن يربّي الأولاد هو، فما أدراني بذلك. هناك أصول يجب تعويدِ الصغار عليها.

أسأله عن معنى ما تقوله. يتهرّب بالقول بأنه لا يذكر، أو يترجم عبارة لطيفة لا يمكن أن تقولها عنّي. يختار أنطوان المطاعم الفاخرة لحجز طاولة للعشاء، دائماً تجد ما تنتقده، الخدمة، الديكور، لباس النادل، نظافة الأواني، طريقة تقديم الطعام. لاحقاً سيكون رودي ذريعة دائمة لأتهرب من هذه العشاءات. كان ركيك الصحة. لا يمرّ أسبوع دون أن يمرض وترتفع حرارته، إضافة إلى أنّ تعلّقه بي كان يمنعني من تركه مع أي حاضنة ولو لساعات قليلة.

الفرنسية تعيدني دائماً إلى دير الراهبات. إلى الكلام الذي يتبادلنه عنا، فيما ننهمك في إعداد الطعام والحلويات. يرسمن نظرة حانية، يربتن على كتفي أو يقرصن خدي بينما عيونهن تلتهم ما يقلى أو يعدّ في المقالي والطناجر. أقول لأمي في كل مرة «أيأكلون كل هذا؟» تسكتني عابسة. كانت أمّي تحزر رغم عدم فهمها لكل الكلمات ما يجري بينهن. من ينمّ على من، وكيف تتهم الواحدة الأخرى بأنها بقرة لا تفكّر إلا ببطنها. أخرى تتوعد زميلتها بإخبار الريسة كل شيء. تخبرني عن التبرعات الحقيقية التي تصل يوميًا. وكيف يفرزنها، لا يتطوعن إلا بالبالي منها. الثياب الجيدة توضّب ويحتفظن بها. أسألها ساخرة ما حاجتهن لها، وهنّ في زي واحد «أليس لديهم أقارب؟». تجيبني متعجبة أن يفوتني ذلك.

العلاقة التّي تقوم بين سالي ورودي وبين جدتهما لا تشبه أية علاقة أعرفها. تظنّ أن الهدايا الثمينة تكفل محبتهما لها. لِمَ ستهتم سالي بقبعة أو بفستان من ماركات غالية. رودي أيضاً لن يقترب منها رغم السيارات والشاحنات والطائرات التي يسيرها جهاز تحكّم. يحبّ هذه اللعب، لكنه لا يقترب ليأخذها.

عندما كانا رضيعين، لم تحمل أياً منهما. تقول إنها لم تحمل أولادها في هذه السن، لأنهم يبصقون، ويتقيّأون، ولا يفهمون سوى بتوسيخ حفاضاتهم والرضاعة ثم النوم. كبرا فانتقدت طريقتهما في الأكل، في الجلوس إلى الطاولة، في مكالمتها، في اللعب والصراخ، في إفساد ثيابهم. على أنطوان أن يهددهما بالعقاب القاسي ليقتربا من جدتهما ويقبلا بمعانقتها. حتى إنّ رودي أطلق عليها لقباً في طفولته The monster. ربما بسبب ضخامة قامتها، أو لأنها لا تحب كما تقول كثرة التدليل أي التقبيل والمعانقة.

سنوات كثيرة تمرّ قبل أن أعلم أن أنطوان هو من يدفع تكاليف إقامتهما في كليفلاند. لولا الفواتير التي وقعت تحت يدي بينما أوضب الجوارير لما عرفت. أشعرني ذلك بغصّة. تذكرت حين علمت بتدهور الليرة اللبنانية. قلقت على أمي، على أخي. قيل إن الراتب وصلت قيمته إلى ما يعادل العشرين دولاراً أو أقل. لم أفاتح أنطوان بما يقلقني. لم أعتد أن أشاركه أموره المالية. ما أعرفه أنّ هناك حساباً مصرفيًّا على حِدَة لمصاريف البيت. هو الذي استخدمه دون أن أعلم فعلاً كم فيه. لم أتجاوزه يوماً.

كنت جمعتُ مبلغاً من بيعي لأعمالي الحرفية. أرسلته لأمي محوّلاً إلى المصرف حيث يعمل نقولا. كانت الأخبار عن الفقر عن

الإفلاسات عن تحوّل حتى الأثرياء إلى معدمين بين ليلة وأخرى يمنعني من النوم. صور تتناقلها الأخبار عن أُناس ينبشون النفايات أو ينتحرون، عن عائلات تعرض أبناءها للبيع.

أنطوان لم يقلق. لم يحك حتى عن الموضوع. لاحقاً سأفهم أن أهله قبل الجميع حوّلوا أموالهم إلى الدولار. لم أستعد قدرتي على الأكل والنوم إلا بعد أن تأكدت من وصول المبلغ. كم كان لا أذكر، ألف دولار أو ألف ومئتان، نسيت الآن.

لم تمضِ شهور حتى اتّصل بي شخص لا أعرفه، شاب لبناني قدم إلى أميركا للعمل. قال إنه يحمل أغراضاً لي من لبنان. اعتذرت منه ما إن لاحظت ثقل الحقيبة التي يحملها . إضافة إلى البذورات واللبنة المكدوسة والبن حمّلته أمي ثياباً صوفية، وأخرى حاكتها بالصنارة أو مطرّزة لرودي وسالي، أغطيه للطاولات مخرمة. ولي جاكيت بيضاء من الصوف الناعم بأزرار نحاسية وجيبين طرّزت عليهما سفينة شراعية وبحراً. سألبسها سنين حتى تتسع ويبهت أبيضها ويسمرّ. الأكمام تبرى عند الكوعين أيضاً. أوضّبها في كيس لأحفظها من الغبار. كذلك أحتفظ لرودي ولسالي ببعض تلك الثياب كتذكار من طفولتهما . قبل سنة نبش رودي محتويات القبو، عرض التذكارات والأشياء القديمة كدفاتر العلامات والبطاقات البريدية، رسومهم، صورهم، لعباً كانت لهم، خصلات من شعرهم أوّل مرّة يقص فيها ، أول سن حليب يسقط ، أراد منّي أن أعلّق على كل غرض فأذكر تاريخ كل ذكرى. لكن حين أقترب من الجاكيت لم أقل شيئاً.

الساعة الثالثة والربع فجراً. ضوء النوّاصة ينعكس على الستائر، يرسم أشكالاً في العتمة. أحسّ بها هنا، تتحرّك عندما أغفو، أفتح عينيّ فتبتعد. أسترجع الكابوس بتفاصيله. ما الذي يجعله موجعاً هكذا؟

أنهض، أبحث في الجارور عن ورقة. ربّما حين أكتبه، أتمكّن من محو صوره. أشعل ضوء غرفة الجلوس. أجلس على الشرفة. الهواء يطيّر الورقة عن الطاولة الصغيرة.

رأيت بيتاً قديماً داخل حارة ترابية الدروب. الباب خشبي. الرطوبة فسّخت ألواحه. يصرّ حين يُفتح. عند اليمين غرف نوم ومطبخ وحمام. جهة اليسار دار كبيرة، في وسطها سرير حديد ترقد فيه أمّي. كانت زعلانة. اختلفت مع دارين ابنة أخي. في الوقت نفسه خافت من نقولا. لا يحب أن يُزعِّل أحد ابنته. ثمّ أرى نفسي في مكان آخر ومختلف. أخي نقولا يخبرني إنّ أمي ماتت. البكاء لا يطلع. أصابع خفيّة تضغط على رقبتي وتشدّ بكل قوة. أركض مع أخي إلى البيت. من سرعة الركض تنثني ركبتاي. أقع. أركض مجدداً. أذهب مباشرة إلى حيث أمي. يدلف أخي ناحية غرفة النوم ليعدّ للجنازة. بجانبي تقف زلفا. أقول إنّ أمي تتحرّك، صدرها يعلو ويهبط، لم تمت. تردّ: «لا هم هكذا، تبقى في عضلاتهم بعض الروح والحياة فينتفضون. تحرّك أمّي

رأسها. ترفعه قليلاً. تراني: « يا حبيبة قلبي يا ابنتي، كشّفي عنّي الغِطاء». فزعت زلفا. أنا فرحت. رفعت الغطاء. القروح عميقة الغور سوداء، تنزّ قيحاً يلطّخ ثيابها والملاءة. تبرم. تقع من السرير. تدور على نفسها بخفّة وهي تتدحرج. العرق ينزل غزيراً من كل مسامها ومن شعرها الأبيض. فكّرت أنني سوف أحمّمها لترتاح. قالت إنّ جسمها الآن لا يؤلمها. لم تكن سابقاً قادرة على أن تدور حول نفسها هكذا. أشرتُ بإصبعي إلى القروح. لم يطلع الكلام لأسألها. فهمت. «ما عادت تحرق أو تؤلم، لاحقاً ستجفّ كأنها لم تكن» تجيبني.

عصر البارحة، كنت أقطع الطريق لأدخل الشارع الفرعي. أحمل أكياساً كبيرة من الخضار والبيرة. خفّفت سيارة سرعتها لأعبر. بيجو قديمة ما عدت أرى مثلها منذ سنوات. الرجل العجوز خلف المقود يشبه أبي. خفت كما لو أنني رأيته فعلاً.

صور كثيرة تطلع فجأة. أستغرب وضوح تفاصيلها. الذكريات المتعلّقة بأبي قليلة. غالباً ما تبدو غير واقعية كأنني ألفتها لذلك لا أحكيها لأحد.

أذكر يوماً الطقس فيه بارد. ألبس كنزة سميكة حاكتها أمي، عليها رسوم لا أحبّها تناسب من هم أصغر مني، أراد أبي أن يصطحبني في مشوار كما قال. أمّي لن ترافقنا. هي مشغولة. بكيت وعاندت عندما أرغمتني على ارتداء الكنزة. لم أسكت إلا حين وعدني أبي همساً بالشوكولا. الشوكولا والبيض حُرِمت منهما طويلاً بسبب الحساسية التي يسبّبانها لي. عمري لست متأكدة منه. ربما كنتُ في السنة الثالثة الابتدائية. مشينا. أظنه لم يعرف أين يذهب. زينة الميلاد في المحلات، في حدائق البيوت. أمام البنايات. أتفرّج على مغارة كبيرة، حجم يسوع

فيها كطفل فعلي. ينهمر رذاذ خفيف. يخلع أبي قبعته، يضعها فوق رأسي. سألني عن رأيي في زيارة مكان عمله. تحمسّ كأنه ليس المكان الذي يقصده كل يوم. سرنا في البداية في شارع تظلِّله الأشجار. يحب أن يُحفظني اسم كل شجرة. ما كان بإمكاني السهو. إذ سيعاود سؤالي ليتأكّد أنني حفظته. كان تكراري لأسمائها يفرحه كأنني قمت بعمل عبقري. لا أذكر من الجامعة الأميركية سوى جلوسنا على مقعد نرى فيه البحر وقوله: هنا ستتعلّمين لتصبحي طبيبة.

عرّفني على زملائه: «هذه ابنتي الدكتورة، شاطرة. الأولى في صفها» يقول. أعجب من زعمه فأنا لست الأولى ولا الخامسة حتى. يطالبني بأن أغني بالإنكليزية، وأن أذكر جملة ما. «تحكي الإنكليزية مثل البلبل. لا تكوني خجولة. رأيت هذا المبنى؟ سوف تعملين فيه» قتلني الحياء لدرجة رفضت فيها الشوكولا الكثير الذي قدّم لي. واصلت التحديق في أضواء الشجرة الكبيرة عند المدخل. لم أرد أن أبكي فيعلم الجميع بأنه يكذب.

لم يكن أبي قاسيًّا. لا أذكر أنه عاقبني. أمّي التي تفعل ذلك. تخشى أن يفسدني دلال أبي، تقول. يتأمّل الفرض الذي أكتبه، يقول أن خطي جميل. رغم تعبه، يريد أن أخبره عن درس العلوم أو القراءة الإنكليزية أو أسمع النشيد. لا يهتم أنه لا يفهم أيّة كلمة. كأنها حروف سحريّة بالنسبة إليه. أمي أيضاً تبتسم كأنني فعلت ما يفخران به حقاً.

بعد أن خطف، صرتُ أدرس لوقت أطول. تدريجيًّا أدمنت الاستغراق في الدرس والبعد عن كل شيء. في المدرسة يطلقون عليّ ألقاباً: «بالوعة، شرّاقة، شفّاطة» ساخرين من قدرتي على الحفظ. أشكو من صعوبة امتحان، يقولون: «نسيت فاصلة أم خسرت نصف علامة؟»

ترتفع معدّلاتي في المواد كلها. أفكّر أن بإمكان أبي الآن أن يقول ما يشاء عنّي.

عندما دخلت سالي إلى الحضانة، عجزت عن كل شيء. أجلس بلا حراك. أنتظر الوقت ليمرّ. لا أغسل ولا أطبخ ولا أنظف، أهمل الحديقة والسقاية. أفكر أن طفلتي الصغيرة في مكان غريب. وسط أُناس لا تعرفهم. ماذا تفكِّر؟ إنني تخليت عنها؟ وددت لو أؤخّر الأمر سنة أو سنتين، أنطوان لم يقبل. قال إنها بحاجة لمعرفة أولاد آخرين. تعرف كل الأولاد حيث نذهب. أنا من يركض نحوها عند انقضاء الدوام. تريد أن تكمل اللعب، تلتصق بمعلمتها، ما إن تراني.

أطلب منها أن تغني أو أن تحكي القصص التي تعلّمتها، أن تسمّي الأشكال الهندسية. تتمرّد. لا تفعل إلا حين يحلو لها. أو عندما تتنافس مع ولد لمعرفة من حفظ أغاني أكثر من الآخر. فكّرت بأمي وأبي وأنا أقول للناس إنّ سالي الأولى في صفها دائماً. أنا التي لم أرد أن أشبههما في شيء.

عندما رأيت مستشفى الجامعة الأميركية، بدا لي صغيراً. أذكره أكثر ضخامة وفخامة. كانت سوزان أخت أنطوان تلد فيه. رغم استقرار عائلة أنطوان في منطقة جونيه، استمرّت العائلة تقصد طبيب العائلة في الغربية، أيام الحرب يتصلون به لاستشارته. المطاعم والمحلات التي يحبّون الشراء منها بقيت أسماؤها تتكرّر طويلاً. لاحقاً سوف تحلّ أسماء أخرى مكانها في الكسليك أو جونيه.

البوابون بعضهم كبار. فكّرت أنهم يعرفون أبي. ربّما يذكرون الطفلة الصغيرة. تأمّلت القبعة، القميص، الزي نفسه لم يتبدّل. تذكرت

أمي تكوي بدلة العمل، تقرّب القميص من الضوء لتتأكد من طياته، تلمّع الأزرار النحاسية لتلمع كالذهب.

في الشارع المحاذي للمستشفى. الشجرات نفسها. كرّرت أسماؤها في سرّي.

أضجر من السير. أحفظ الوجوه، مواعيد موزعي الصحف، شاحنات الدجاج، الخبز، باصات المدارس. منظري ألفه المشاة. يلقون عليّ التحية حين ألتقيهم. أستبدل السير بتمارين أقوم بها في البيت أقول نصف ساعة تكفي. النصف يصير ساعة، الساعة تصير ساعتين.

عندما شكوت ألم ظهري قال الطبيب لا مشكلة بالفقرات الآن، لكن العضل ضعيف. عليّ بالرياضة. هكذا فعلت لاحقاً.

عندما أتوقف ليومين. يعاودني الوجع. بعد الصور، يقول إن العضلات صارت قوية. لا شيء جسماني، ربما السبب نفساني.

أستيقظ باكراً. أختار حدائق مختلفة، شوارع ظليلة، مناطق بعيدة عنّا. أركن السيارة. أمشي بثقل بداية وأصاب بآلام في كل جسمي، أصرخ كلما حركت يداً أو كلما قعدت أو قمت. مع الوقت تحوّل السير إلى هرولة والهرولة إلى جري. أركض وأركض حتى أفقد السيطرة على جسمي. أفكر أن عليّ أن أتوقف لكنني أعجز. تخدشني الأغصان المتدلية، لا أحس. في البيت فقط انتبه للجروح. أحياناً أعجز عن النوم. أتسلّل إلى الخارج. أجلس عند العتبة، أنظر إلى الحباحب، إلى النقاط المضيئة فوق ظهرها كأنني أنظر إلى سماء لا إلى مرجة مرصعة بآلاف

النجوم. لا صوت سوى صرصار الليل والضفادع. أضع قربي قنينة ماء، أشرب الماء منتظرة طلوع الفجر وبدء الجري. أشياء كثيرة أعتاد على مرّ السنين أن أقوم بها وحدي. صحيح أن معظم الحدائق عرفته برفقة سالي وردي، لكن هناك مناطق كثيرة استكشفتها وحدي. بعد أن غادرت سالي البيت وكبر رودي، تعرّفت حقاً على كليفلاند. كم مرّة مررت قرب الكنيسة ولم أنتبه إلى أنها للموارنة. هنا في كليفلاند! حتى المستنقع القديم القريب من بيتنا الأوّل، جريت حوله. كانت تمطر. الوقت باكر. الشجرة اليابسة نفسها تتوسّطه فوقها حط غراب، ينعق عالياً. البط فيه متكاسل، حتى المطر لا يدفعه للحركة. كأنه عائم وهو نائم. وقت طويل انقضى لم أمر فيه قربه وقرب البناية القديمة. هي بعيدة عن بيتنا في الضاحية. كل شيء بدا صامتاً. أصوات مخنوقة تتسلل من النوافذ. حنفيات تجري منها المياه، هدير ماكينة القهوة أو العصير. صوت زبدة تبقبق فوق النار. صحون توضع في المجلى. رائحة خبز البيغل تفوح. تختلط رائحة التراب برائحة سكر وحليب وخبز. في شهرها الخامس رأتني سالي آكل البيغل مع الجبنة البيضاء، ضربت يدي مقرّبة فمها. حرّكته كأنها تلوك الخبز معي. فكرت ما المانع في إطعامها خبزاً وجبناً. اعتقدت أنها رضيعة، لن تأكل أكثر من قضمة صغيرة. لكنها أكلت نصف البيغل، فتحت فمها مرّات لتأكل بعد. عندما رأت أنني توقفت. انفجرت بالبكاء. لذلك أطعمتها القطعة الباقية. استمرّت تتجشأ طوال الليل. عندما تُصاب بالحازوقة، أعجز عن النوم أو الراحة قبل أن تكف، كيف والحال هكذا. ماذا أقول لأنطوان أطعمتها ما لا يُسمح به في عمرها. تبكي محركة رأسها يميناً وشمالاً، تضرب الهواء بقدميها ارتحت أن أنطوان لا يستيقظ بسهولة. لا صراخها ولا مرضها يوقظه. لا ينتبه صباحاً إلى أنني لم أكن في السرير ليلاً... حرّمت من يومها تجربة

أطعمة الكبار. خوفي على سالي من جهلي، دفعني إلى قراءة كل مجلة، كلّ كتاب يتعلق بالطفل، صحته، طعامه، نموّه، ألعابه. ما كان بالإمكان أن أسأل أحداً. انشغل أنطوان حينها كثيراً بشركته الجديدة. تحتاج إلى التفرّغ. كذلك البحث عن منزل لنا. تبكي سالي كلّما شمّت رائحة البيغل. تحرّك يديها وقدميها بقوّة، تضرب مسند الذراعين في عربتها. لا أرضخ. أجّرها إلى الملعب وسط المجمّع السكني. ترى الأولاد فتنسى. تضحك. تحدث أصواتاً كأنها تناديهم للاقتراب واللعب معها. رودي كان يبكي إنْ رأى وجهاً لم يألفه. ظننت أنّ ما تعلّمته في تربية سالي سيفيدني مع رودي، لكن ذلك لم يحصل.

لم أصطحب سالي في سيارتي إلا بعد ستة أشهر من رخصة السوق. تعلّمت القيادة لأن بيتنا الجديد بعيد. أنطوان غائب باستمرار. الدروس والنجاح في امتحان القيادة شيء والقيادة الفعلية شيء آخر. ساعات أتمرّن فيها وحدي، أترك سالي مع أبيها. أخرج فجراً لأتمرّن أو ليلاً. وحدي لا أخاف. يمتلئ نومي بكوابيس. أكون خلف المقود في طرق ضيقة، وديان من كل جانب فجأة أعجز عن التحكم بالسرعة. كأن للسيارة إرادة مستقلة عني. المقود لا يستجيب، تسرع وحدها، لا أخاف لأنها تهوي نحو الوادي بل لأنني وجدت سالي فجأة في عربتها على المقعد الخلفي. في أحيان أخرى، تواجهني شاحنات ضخمة، لا مجال لأزيح من دربها. أو تتعطل الفرامل. مرّة حلمت أنني أقود لكنّ السيارة تتراجع إلى خلف بدل أن تتقدم . عندما أحسّ برغبة في الابتعاد، في أن أفكّر وحدي، لا أقود. أمشي حتى تصفو أفكاري. لا تزال القيادة متعبة. لا أقوم بها بشكل عفوي. أنتبه إلى كل شاردة كأنها عمل ذهني معقّد. بالنسبة إليّ القيادة والمتعة نقيضان. المشوار الفعلي يعني أن لا أقود السيّارة بنفسي.

أذكر رحلتي في باصات Greyhound. رغم أنها لم تكن رحلة قد خطّطت لها. كان أنطوان مسافراً، هكذا قال. تخيّلت طوال النهار المطعم الذي سوف يأكل جالساً إلى شرفته. الشوارع التي سيمرّ بها. رقم الغرفة التي استأجرها. برنامج السهرة في الفندق. الفرقة التي تعزف. الممثل الكوميدي الذي يقدّم عرضه المضحك. عليّ ألا أمكث هكذا، أنظر إلى المرج من خلال النافذة. الأمطار تنهمر الهواء يثني رؤوس الزنابق، بتلّات الورد تقع واحدة واحدة. تتحرّك الصفصافة، تنفض قطرات كالفضة علقت بأوراقها. تخيّلت أنني أركض. الطاقة تفور من جسمي فأسرع وأسرع. هكذا خطر لي: لِم لا أسافر وحدي؟ لم أحمل سوى حقيبة يدي. أردت أن أكون في مكان بعيد ومختلف. رغم أنه العصر، اتكأت الرؤوس وغرقت في النوم عيناي تعلّقتا بالأشجار التي يفوتني اسم الكثير منها. بعضها يشبه ما لدينا. لكن هنا أنواعاً من الأرز والصنوبر لم يسبق أن رأيت مثلها. في بنسلفانيا، أرى قطعاناً من الأبقار، أبقار تستلقي فوق العشب، تمضغ بكسل ناظرة بعينين ناعستين. الشمس الغاربة ترسم سراباً في الحقول. حقول صفراء من الذرة، من القمح أو الشوفان، خضراء من اللوبياء والفاصوليا. غابات تواكبنا على جانبي الطريق. تحت شجرة سنجابان يقفان على القائمتين الخلفيتين يحملان بين القائمتين الأماميتين بلّوطاً. أسنان حادة تقضم متلفتة إلى يمامات قريبة. العتمة تواري المعالم، تكرّ المصابيح. يختفي الأخضر. أتأمل انعكاس الوجوه النائمة. شاب قربي دون العشرين. على معصمه وشم غيتار. شعره طويل، مصبوغ بالأحمر والأسود. في حاجبه خطّ أبيض من أثر وقعة.

في استراحاتنا على الطريق، أشرب قهوة. نصل نيويورك ليلاً. القهوة جعلتني صاحية تماماً. لم تبدُ نيويورك باردة. أحببت الهواء

يضرب وجهي. كانت مختلفة عما أعرفها. لا أذكر كم مشيت. اتكأت مراراً عند زوايا محلاّت مغلقة. أنظر إلى مصابيح السيّارات، إلى سائقيها. لم أنتبه للوقت، للتعب، للبرد. في المقهى الأوّل الذي دخلته، طلبت سندويشاً. بقي أمامي في الصحن. فاجأني أن يتحرّك الناس بنشاط هكذا. كأنهم نهضوا الآن من نومهم. نسيت فعلاً كيف تكون الحياة ليلاً. في الحانة التي أمضيت بقية الليل فيها، شربت كؤوساً عديدة. لم تؤثّر فيّ. يعدونها خفيفة. ضعت في الصخب حولي. نسيت أسماءهم. في سنترال بارك، يزداد عدد العدائين مع ساعات الصبح الأولى. القهوة بردت في فنجاني. ساعتان قبل أن أعود بالباص. أخلع الجاكيت. أربطها حول خصري. أركض خلفهم. حمامات ترفّ عالياً، تصفق جناحيها حين أقترب.

رأيت مناماً. كنت أمشي في طريق منحدرة. حولها صخور كبيرة. لا صوت سوى الحصى تطرق بكعب حذائي. في البعيد غابة صنوبر. أمشي باتجاهها دون أن تقرب. تبدو أبعد مما ظننت. الطريق تستمر في الانحدار. الغابة يوجّ أبر صنوبرها. الشمس تغرب خلفها عند الأفق. أرى جبالاً قاحلة. لا نبات ولا بيت عليها. غيوم تسبح فوقها كحيتان ضخمة. عند عطفة الدرب، شجرة خروب، تتدلى الظروف الكستنائية من كل أغصانها. تحتها صخرة ملساء. أجلس عليها. لا أسمع سوى احتكاك ظروف الخروب بالأوراق. أتأمّل الدرب التي تنكشف لي. تظهر أمي من بعيد بتنورة رمادية. ضفائرها طالت وصار بياضها أقوى. تمشي حافية، ناصعة القدمين كأنها تطير. الحصى تفرّ من تحت أقدامها. لا تخدشها. تمرّ كالطيف. لا تراني. لا تحسّ بي. تحت الخروبة أقف لأواكبها بعيني. تبدو نقطة صغيرة وبعيدة. تدخل الغابة ثمّ تختفي.

أشرب فنجاناً آخر من القهوة. الضوء بدأ يقوى. لا أحد على الشرفات. هرّة صغيرة في شقة قبالتي تصعد بخفّة إلى طاولة بلاستيك بيضاء. ترفع بمخالبها الغطاء عن قفص كنار. تضرب قضبان القفص بقوة. يطير الكنار كالمجنون من ناحية إلى أخرى. صوته يزعق هلعاً. قد يقتله الخوف فكّرت. أجعك ورقة من الصحيفة على شكل طابة. أنظر

حولي. لا أحد. أرميها ناحيتها بكل قوة. تجفل من الخبطة. ثمّ تقف خلف الدرابزين متمسّكة بالحدائد. تنظر إليّ مباشرة بعينين ثابتتين تشعان غضباً وشرًّا.

القهوة خفيفة. لا طعم لها. كان أبي يحبّ شرب القهوة. أمّي تجاريه بشرب رشفتين لا أكثر. ذلك مربوط بذاكرتي برائحة الياسمين.

شرفة بيتنا المستطيلة والمطلّة على الشارع ضيّقة، قبالتها شقق سكنية. الشّرفة الخلفية مربعة، نخرج إليها عبر المطبخ أو غرفة نومنا. عليها حوض كبير. فيه شجرة ياسمين. لمرّتين كل أسبوع، تكون مناوبة أبي في الحراسة ليلية. يعود إلى البيت فجراً. لا يجد أمّي نائمة حتى في عزّ الشتاء. أيام الصحو، يجلسان قريباً من الحوض. رائحة البن تمتزج بالياسمين. أسمع همسهما وضحكاتهما المخنوقة. صيفاً، عندما نفتح النوافذ، يحتجّ نقولا زاعقاً بهما أن يدعاه ينام. قبل أن يصل أبي تفرش فوق الطاولة شرشفاً أبيض مطرزاً.تقول إنّ ذلك يريح نظره بعد ليلة مجهدة. رغم حذرهما من إيقاظنا، أشتمّ وأنا في عزّ نومي، رائحة البيض يفقس في ماء يغلي، رائحة زيت الزيتون والسماق والحامض المرشوش فوق البيض. الخبز وهو يغمس. صوت لوكهما الطعام. أحلم بسببهما بالطعام قبل أن أفتح عينيّ . أحياناً قبل وصوله. تخبز مناقيش زعتر وكشك. تملأ الرائحة البيت. ينهض أخي عند الفجر أحياناً، ليشاركهما الأكل ثم يعود للنوم.

عندما مرضت أمي بالقرحة، أذكر أبي يعود إلى البيت، يدخل غرفة النوم، يجلس عند طرف السرير. يُمسك بيدها متلمساً أصابعها. ترفع رأسها، تبتسم. أكون واقفة في الباب. يناديني لأجلس مثله فوق السرير. تقول دائماً إنّها تحسّنت كثيراً. لو يسمح لها بالنهوض. النوم

يُمرض أكثر من التعب. يتبدّل وجهه حينها . يبقى ساهماً. تخفّف عنه. هذا ليس بمرض لِمَ تقلق؟ الحقّ على عملك في المستشفى يزرع في رأسك الوساوس، تقول.

أنا أيضاً، أطلّ برأسي خلسة. أتفقدها. أسمعها تتحرّك أو أرى يدها تسوي الغطاء فأرتاح. لمَ أمّي تبقى نائمة؟ أسأل نقولا. «هي مثلنا ألا تمرضين يا بلهاء وتبقين في السرير؟» لم أعتد أن أراها مريضة. كنت أظنّ أنّ الأمهات لا يمرضن. الآباء بلى. كثيراً ما كان أبي يُصاب بنوبات في الكلى. «رمل في الكلية» لم أفهم يومها كيف له وهو الكبير أن يبتلع رملاً ويفسد صحته. أم عساه فعل ذلك صغيراً؟ لكنني لم أقلق على أبي. هو يعمل في مكان حيث يصلحون فيه كل شيء ألا يحكي عن الأطباء ينقذون الناس رغم خطورة أمراضهم؟ لا أحد يموت في المستشفى. هذا ما اعتقدته على الأقل في طفولتي.

في فترة مرضها، أسمعها تتقيأ. يطلع صوت، فأخشى أن تسقط من فمها أعضاؤها الداخلية. مهما كتمت الصوت أسمعها. أراها نحيلة شاحبة، تخرج من الحمَّام بيدين مرتجفتين، تنبّهني حين أباغتها راكضة إلى الحمّام ألا أخبر أبي لأنني سأشغل باله بلا داعٍ، فما يصيبها مجرَّد عارض بسيط.

في كل مرّة أمرض وألازم الفراش. أذكرهما، تعود إليّ تفاصيل منسية. كالأشياء التي يهديها إيّاها. غير الزهور، كان يحمل لها نوعاً من الحلويات، اسمه حلاوة جزرية. لم نكن نحبه. يؤلمها ألا نشاركها أكله. ترجونا . لا أحد يفعل سوى أبي، يأكل معها. يخبر القصة نفسها. أسماها نقولا قصة روز وحلاوة الجزرية. يرى أمي على مدى أكثر من ستة أشهر. كل يوم هي من يفتح الباب. يناولها اللحم. لا يحكيان سوى

عن الطلبيات. تراه في الكنيسة. لا تلتفت نحوه. يقول صباح الخير، تردّ بين أسنانها خافضة رأسها. يراقبها تمشي في الأسواق مع رفيقاتها. ثم وهي عائدة. يعلم أنها تحبّ حلاوة الجزرية. هي الشيء الوحيد الذي تشتريه لنفسها من حين لآخر. يحدس أنها معجبة به وإلاّ لِمَ تحمرّ هكذا ما إن تراه. يشقّ عليه البعاد عنها. عندما ينتقل للعمل في المستشفى. يبدأ هناك صدفة. عُرضت عليه الوظيفة عندما كان يقوم بتوصيلة كبيرة. كانت المرة الأولى التي يذهب فيها إلى مكان بعيد هكذا. يومها تفاءل اللحام، ومنحه خمسة قروش زيادة على أجرته الأسبوعية. ظنّ أن المستشفى ستعاود الكرّة ليصبح لحامها. لم يتردّد في قبول الوظيفة. سيبقى نظيف اليدين. أجرته ثابتة وجيّدة. يلبسونه ثياباً نظيفة ومرتبة. لن يدور على بيوت الخواجات ليحصّل المال أو ليوصل اللحم. يقول إنّه حرّم أكل اللحم على نفسه لأكثر من ثلاث سنوات. المشكلة في الوظيفة أنها أبعدته عن أمي. لذلك عندما رأته بعد أسبوع في الكنيسة، لاحظ اللمعة في عينيها. لكنها خيّبته عندما رفضت هديته، أوقية حلاوة الجزرية. قالت «لا أقبل الهدايا من الغرباء». في الأسبوع التالي، طلب يدها من اسحق ليڤي وزوجته. انتظر خروجها إلى الكنيسة ليقرع الباب. وقف وقتاً طويلاً قبل أن يُفتح له. لم يعرف أنهما ينامان معظم النهار بعد ليلة البوكر. لكنهما كانا لطيفين، أفهماه أنّ لروز أماً، عليه أن يحكي معها هي.

بعد انتقالنا من بيتنا الأوّل، باتت الصباحات لي وحدي. ينشغل أنطوان في الاستحمام والحلاقة. يشرب النسكافيه واقفاً قبل أن يخرج. صبحيتي تبدأ لاحقاً. صيفاً شتاءً أحب الجلوس خارجاً في المرج أو قبالته. أحياناً أجلس عند أحدى الدرجات. سالي تجلس قربي في ثياب النوم تتكئ إلى خاصرتي. تقلّدني فترفع كوب الحليب في الوقت الذي أرفع كوبي. رودي الذي تأخّر في كل شيء، أقلق أنطوان منذ الشهر

الأوّل. وُلد أصغر، مرض منذ الأسبوع الأوّل. لم يكتسب الوزن المطلوب. لم يدبّ رغم تجاوزه الشهر التاسع. عندما أطمئنه بإعادة ما قالته الطبيبة، يغضب. يُذكرني كيف مشت سالي في الشهر العاشر. بالكاد رودي يستطيع الجلوس، أسنانه لم يظهر منها إلا اثنتان.

كان الطقس دافئاً. كلتانا جالستان فوق العشب مباشرة. أدلّها على زهرات برية. تراقب جندباً صغيراً، فجأة أرى يديه الصغيرتين. وجهه الضاحك ينظر إليّ. راح يدبّ فوق العشب بشكل دائري أو متراجعاً إلى خلف، يطلق ضحكات حلوة. كان حرًّا يتحرّك في كل الاتجاهات. يحتار أين يذهب أنحو مرشّة الماء أم نحو الشُّتول. حاولت أن أحزر كيف دبّ ليصل وحده إلى المرج. لم أعرف. صورناه لندهش أنطوان بما فعل رودي بمفرده. لا زال الشريط لدينا. لكن رودي صادره. كنت حين أمرض. يقف قريباً من رأسي. يشدّني من شعري. أو يسحب الغطاء. يقول: قومي، قومي. إن لم أفعل يبكي مدعيًّا أنه جائع. كان مثلي يكره رؤية أمه مريضة.

الحرّ اشتد منذ مساء البارحة، ترتفع الحرارة أكثر من عشر درجات في يوم واحد. لا مروحة في البيت. يقول نقولا إنه سيعيرني واحدة كبيرة لا يحتاجونها بوجود المكيفات. المكيّف في شقة ناديا قديم. عندما حاولت تشغيله بصق غباراً كثيفاً على الأثاث، تبع ذلك رائحة مطّاط محروق. أسوأ الأيام الحارة، كان في الملجأ. لا منفذ إلا باب واحد. مناشف تبل بالماء، توضع فوق الرأس. تسخن في لحظة. الجميع مستند إلى الجدار. صمت تقطعه العيارات النارية، دواليب السيارات العسكرية تنهب الأسفلت. جارتنا تلتف بشرشف مبلل ماءً كالشرنقة وتغفو. لا تكترث للآلام في عضلاتها كلها. عندما يجدون القدرة على الكلام، يعدّدون الملاجئ الجيّدة التي ليست مستودعاً عاديًّا كالذي نحن فيه. يقولون إنّ فيها نوافذ عديدة وأكثر من مخرجين. هناك مراوح كبيرة في السقف. الجدران سميكة تمنع تسلّل الحرارة إلى الداخل. يصفونها كأنها الجنة. يقولون إنّ سكان تلك البنايات بلا قلب، لا يُحسّون مع غيرهم لا يسمحون للسكان القريبين بالاحتماء في ملجأهم. يحكون قصصاً عن عائلة أصيب ثلاثة منها بعد أن منعوا من الدخول إلى أحد تلك الملاجئ. احتموا خلف إحدى السيارات عندما

باغتهم القصف. إثنان احترقا بالكامل. الثالث مات بعد عدة أيام، «الناس لم تعد لبعضها».

أشتاق هنا للمدى. حيث أنظر أرى عمارات. أفتقد العمل في المرجة. أذكر رائحة النعناع أقطفه باكراً، الحبق الذي يعبق فيوقظ أنطوان. رائحة التراب المبلول ماء. أحمل كوب النسكافيه. أقرفص هنا، وهناك، أقتلع عشباً، أصلح السياج حيث تتسلّل الغزلان. أقطف التوت، أكومه عند كتف الجل. أقطع زهرات الكزبرة والبصل الأخضر والنعناع، أضعها في إناء. كان رودي في صغره، يقطف البندورة الخضراء، يقصف رؤوس الزنابق، الورود الحمر، ديك الجن، ما أتركه يكبر من أجل البذار. يركض إلى المطبخ سعيداً ماداً يديه أمامه.

بت أصطحبه معي. أريه متى يُقطف الخيار، وكيف تُقطف الأزهار. أشتري له منكاشاً بلاستيكياً ليعاونني في العمل. تعود سالي من الحضانة. يسارع إلى إخبارها ما فعل. يركض نحو المطبخ، يأتيها بحبّات فريز فجّة قطفها لها. يريد أن يخبرها كل شيء قبل أن تسترسل هي بالحكي عن الألعاب، عن المشاوير أو التخييم في الحديقة. يبكي صباحاً ليذهب معها، سيبكي لاحقاً ما إن يدخل إلى الحضانة.

أصحاب أنطوان يسألون إن عشت طوال حياتي في الريف. عندما أقول لم أعش يوماً إلا في المدينة، يستغربون. ينظرون إلى يديّ اللتين اخشوشنتا غير مصدّقين. لم أكن أرتاح للضيوف الذين يأتون للعشاء. تدوم علاقتنا بهم شهوراً أو سنين أو تكون قصيرة جدًّا. لكنها بالنسبة إليَّ لا تتحسّن ولا تسوء. أعدّ طعاماً يطلبه أنطوان مسبقاً.

أبتسم. أردّ على الأسئلة الموجّهة إليّ. ينتهي دوري عند هذا الحدّ. في البداية، كنا ننتظر انتهاء السهرة لنجلس معاً في المطبخ.

نضحك مسترجعين مواقف غريبة حصلت أو كلمة قيلتْ. أو نقعد تحت الصفصافة أيام الدفء، نشرب كأساً أخيرة. كان يقول إنه مرغم على ذلك من أجل العمل. لاحقاً عندما أقول إنّ زوجة عادل متصنعة، وأقلّد طريقتها في المشي والجلوس، يسكت. في اليوم التالي يحكي عنها كأنه يستأنف الحديث من حيث انقطع. شهاداتها الجامعية، ، تربيتها الراقية، أهلها، تاريخ عائلتها. الانطباع الخاطئ الذي تتركه ويكون ظالماً بحقها.

أحياناً أحاول أن أتخطى طباعي، لكنني أندم ما أن أحاول مجاراة الآخرين والحديث في أمور لا تعنيني. يصافحني بعضهم ثمّ ينسى وجودي. كان أنطوان يساعدني على التحمل. تمتد يده من حين لآخر لتربت كتفي، قبلة خاطفة على الخدّ أو الكتف. عينه تحطّ عليّ. يذكر اسمي مراراً في الحديث. أو يناديني دون داعٍ فعلاً. أفكر باللحظات التي ستبقى لنا وحدنا في ختام السهرة فأبتسم.

فيما بعد، سيصبح بمقدوري الاختفاء كليًّا في المطبخ. لن ينتبه أحد. سينغمس أنطوان في حديث عن أسهم نُصح بشرائها، عن أسواق جديدة عليه الوصول إليها قبل غيره، عن مكاتب لهم في ولاية أخرى.

زوجة عادل هي المرأة الأولى أو هكذا ظننت. لم ألحظ علاقتهما بداية. لا يمكن أن يخطر ببالي أمرٌ كهذا. ألحظ نظراتهما، الارتباك عندما يجتمعان. احمرار في وجهها ما إن يوجّه الكلام إليها. الكؤوس التي تفرّغها بسرعة، بلا انتباه. الطعام الذي تقطعه صغيراً صغيراً وتنسى أن تأكل. السجائر التي تدخنها واحدة تلو الأخرى ساهمة. يدها التي ترتعش ما إن يلمسها بإصبعه صدفة. لم أعرف ماذا أفعل. لا أحد أسأله. كيف أحكي أمراً شخصيًّا كهذا؟

كان رودي حينها قد صار في الحضانة. لم ينفع معه أي شيء

استمر يبكي يوميًا. لا شيء يجذبه إلى اللعب. في نومه يبكي أيضاً أقضي الليل صاحية قربه. عندما أنام فإغفاءات قصيرة. كان وجودي يهدئه. يتوقف عن الصراخ. تقلّ كوابيسه. غثيان متواصل يبقيني في الحمَّام. عظام تبرز حادة عند الوركين. كأنني قطعة جليد تذوب. يظن أنطوان أنني حامل للمرة الثالثة. أنصرف إلى رسم لوحات أكدّسها في القبو. أجلس تحت السقيفة ساعات، أنتبه أن موعد عودتهما قرب دون أن أعدّ أي طعام. أبقى في السرير حتى منتصف النهار. في أيام أخرى لا آوي إليه حتى ليلاً. أكون في حركة محمومة. طاقة تشتعل داخلي. أكثر ما يؤلمني هو الصور التي تتراءى لي. أعلم متى تكون هي المتصلة. أحدس من الهاتف يحمله بعيداً، من خفوت الصوت وتبدّل النبرة من انحناء الكتفين. أحزر متى يسافر للقائها ومتى للعمل. أتأمّل السعادة التي تغمره فجأة ويروح يقبّل رودي وسالي. يلاعبهما بصخب. لا يفعل ذلك معي. يرتبك من جمود قسماتي. من نظرتي. من الشحوب يظهرني كتمثال من ثلج.

في تلك الفترة تعرّفت بميلاني. نأخذ الأولاد إلى البحيرة، يلهون بالأراجيح. أسمعها تحكي عن زوجها العاطل عن العمل. عن نومها القليل، وزنها الذي يزيد، عن طول دوام العمل، عن عدم إيجادها لموظف يساعدها، عن رغبتها في تبديل حياتها والانتقال إلى ولاية أخرى. تضحكني صراحتها، لا تتحرّج من تقليد زوجها يشرب البيرة مأخوذاً بمباراة للمصارعة. أخبرها في تلك المرة أن أبي مخطوف. يباغتها كلامي. لم يكن له مناسبة. تتوقف عن الضحك. تنظر نحوي: هل طلبوا فدية؟ الطبّاخ عندي كولومبي. يقول إنهم يفعلون ذلك دائماً هناك. لكنهم يطلقون الجميع بعد دفع الفدية. هل والدك ثري إلى هذا الحدّ؟

- لا ليس ثريًا. هم لا يريدون فدية.

تحتار ماذا تفعل. عندما تقع دافني عن الأرجوحة، نركض كلتانا نحوها. نأخذ الأولاد بعيداً لنشتري بوظة.

في تلك الفترة، عندما أتصل بأمي تسأل إن كنت مريضة. لا لست كذلك أقول. يتصل نقولا لاحقاً. يقول إن أمّي قلقة عليّ. أفكّر بكلفة المخابرة عليهما. أطمئنه إلى أننا كلّنا بخير.

رسالة قصيرة من سالي. تقول فيها إنها مسافرة خلال إجازتها مع خطيبها. تتمنى لي إقامة طيّبة في لبنان. بمثل هذا الإيجاز تكتب وتتكلّم. لا تحبّ أن نسألها. عندما نفعل لا تجيب، تغيّر مجرى الحديث. كثيرة هي الأشياء التي لا تسمح بالسؤال عنها. تسافر لا ندري إلى أين. تبدّل عملها لا نعرف إلاّ صدفة. تستأجر بيتاً جديداً، نعلم حين تُرَدُّ الهدايا بالمراسلة منّا في الأعياد. منذ صغرها لا يمكن استدراجها إلى ما لا تريد. من الأصدقاء لا نتعرّف إلاّ إلى من تدعوه إلى البيت. يزعجها أن نحكي لاحقاً عن أي منهم.

لم تفعل معي ما تتشاركه عادة الأمهات والبنات. لا تحبّ أن ترافقني إلى المتاجر لشراء الأثواب كما كانت تفعل دافني مع أمها. لا تجلس قربي فنثرثر. لم تطلب رأيي لا في زينة ولا في لباس ولا في علاقة. لم تأت إليّ لا في طفولتها ولا في مراهقتها لتشكو. كأنّ لا لحظة ضعف واحدة عندها. كنت أحلم أن تكبر ونصبح مقرّبتين فتكون رفيقةً وابنة.

أعرف عنها عبر رودي. يخبرني أشياء أحتفظ بها لنفسي وإلاّ قستْ على أخيها. في طفولته جرّدته من اسمه ونادته إلى ما بعد السنة الثانية بـ The baby . عندما صار مثلها في المدرسة أسمته Chatterbox .

إذ تحدس أنّه ينقل إليّ ما يسمعه. تكفلتْ سالي بتأديب كل من يجرؤ على ضرب رودي أو السخرية من خرقه وهشاشته. عندما يقصّر في مادة، تأخذ على عاتقها تدريسه. تبتكر طرقاً مسلية. تعلم حبّه للموسيقى، تحفظه المعلومات التاريخية عبر تحويلها إلى قصصٍ مُلحّنة، أو إلى ألعاب. أسئلة المونوبولي تحوّلها إلى أسئلة عن الرياضيات أو العلوم. أعجب من صبرها الطويل. تزعل عندما لا تكون علاماته جيّدة. تؤنّبه كأنها أمّه لا أخته. تنجح في تدريسه. تفشل في جعله يحبّ الكرة مثلها. أسمعها تصرخ به أن يعود، وألا يكون ضعيفاً. ما المشكلة في أن يقع أو يخسر أو تصيب الكرة رأسه؟ لا يردّ. هي أيضاً لديها كلّ أولاد الحي لتلعب معهم. تيأس منه، وتنطلق باتجاه الحي.

أفرغ الخزائن العلوية في المطبخ. أجد مطحنة صدئة للحمص. ماكينة كهربائية لفرم اللحم. أخرى يدوية كالتي كانت في بيتنا.

أذكر أمي صبيحة الأحد، واقفة تطحن اللحم والبرغل والبصل، مرّة ثم ثانية ثم ثالثة. رائحة القرفة والمردكوش هي الأقوى. أمدّ يدي إلى الصنوبر المنقوع. آكل حباته خلسة قبل أن تزجرني. تحبّ الأحد. لا يزعجها وقوفها الطويل في المطبخ مادامت تحضر طبخة يحبّها فرنسيس أبي. تومئ إليه أن يقترب ليتذوّق الكبة نيئة قبل طبخها. هل ينقصها شيء؟ تسأل "تسلم يداك. طيّبة جداً. أرجوها لتسمح لي ببرم مسكة المطحنة. أبرمها مرات قليلة وأتعب. تقبّل يديّ «يداك صغيرتان، البرم يحتاج إلى قوّة».

أكلات كثيرة امتنعت عن طبخها منذ خطف أبي. حتى نقولا لا يطلبها. لا أذكر أنها طبخت طوال تلك السنين الملوخية أو المغربية، إلا للدير. تتساءل أحياناً إن كان الطعام الذي يطبخونه لأبي طيّباً، أم تراهم

يطعمونه المعلبات. في الملجأ، لا تضطرب إلا عندما ينهمر القصف على الغربية. الناس يقولون: من البداية افعلوا ذلك، أنموت وحدنا، أروهم كيف تكون البهدلة والعذاب».

تتمتم وحدها في الزاوية، تتقوقع حتى تصبح صغيرة جداً. تراها إحداهن، فتطمئنها إلى أن القصف ليس علينا. يشرحون لها كيف أن هذا الصوت يعني انطلاق المدافع من الشرقية إلى الغربية لا العكس.

الكل يرتاح حينها. الأولاد يزداد صخبهم وشجارهم. تنفتح الشهية، فتجتمع النساء حول وابور الكاز لإعداد طبخة، وصنع سندويشات للأولاد الجائعين. أمّي تصلي في الزاوية «نجّنا يارب». أبي هناك يسمع هذه الأصوات الآن بقوّة أكبر. لا تتحرّك أمي أو تغيّر جلستها إلا حين يهدأ القصف. الغربية أوسع من الشرقية. هناك البحر. القذائف قد تسقط فيه. تقول عندما نعود إلى بيتنا.

يسألها نقولا عن حاجتها للصحف. لماذا تكدسها هكذا وتجمعها. تقول: لتلميع الزجاج. يستغرب جوابها. لا زجاج على النوافذ كلها. حطّمه القصف والإنفجارات. استبدلناه بالنايلون. تجمع الصحف من الدير. أراها في ضوء العصر الشحيح، تقلّب الصفحات تحدّق بالصور. لا تطلب مني أن أقرأ لها. لاحقاً سأنتبه إلى الصور التي تنظر إليها. سأفعل مثلها خفية عنها. صور للبنايات المثقوبة بالرصاص للمصارف المحروقة، للجثث المشوّهة في شوارع مقفرة. لأطراف مبتورة لجثة فُصل عنها رأسها. سأرى مخطوفين نجوا. على أجسادهم آثار لحرق السجائر. بقع سوداء خلفتها أعقاب البنادق. جثة رُبطت رجلاها إلى السيارة، الحبال لم تفك بعد. مخطوف آخر وجهه مشطوب بشفرات حلاقة. فتاة خلف الدوشكا تحرّك مدفعها، وجهها يطفح

سعادة. متقاتلون في بدلات عسكرية يرفعون رايات النصر، أمامهم جثة رجل أربعيني عائمة فوق بركة دم. شارع بعد اشتباكات، طرق محفورة، سيارات متفحمة، بنايات مبقورة، كنبات نصف محروقة تطايرت من الشبابيك إلى الخارج. أناس زائغو النظرة في شاحنات صغيرة، يجلسون فوق فرش من الإسفنج. آخرون حملوا طناجر وصرة ثياب فوق رؤوسهم.

الغربية هي التي تشغل بالها. لا تنام إلاّ إنْ توقف القصف عليها. أسوأ وقت الاجتياح الإسرائيلي. تذهب في الطرقات وحدها. تعلم أنني قد صرت كبيرة، ما عاد بإمكانها أن تطلب مني مرافقتها. ابن جيراننا، أخبر نقولا إنه رآها عند معبر المتحف البعيد عن بيتنا. تنظر إلى السيّارات القادمة من الغربية. تحمل قنينة ماء كبيرة الحرّ كان أفظع من أي سنة. الكهرباء مقطوعة. لا ماء للشرب. يزعل نقولا منها. أسمعه يزعق بها: كم مرّة قلت لك، لن يضيع أبي دربه تردّ بصوت خفيض: لكنه سيكون تعباً. يحتاج من يتكئ عليه، من يعطيه شربه ماء في هذا الحرّ. أتريده أن يصل كالغرباء؟ لا أحد في انتظاره. يسكته صوتها الكسير.

أصفق الباب خلفي، أخرج. أنظر إلى الشقق. تضاعف ساكنوها. امتلأت بأقارب ومعارف. زيارة الجيران مصدر تسلية بالنسبة إليّ. ليسوا مثلنا، يسهرون حتى ساعة متأخّرة. ماذا لو هرب خاطفو أبي؟ ماذا لو أفزعهم قصف الطيران والبوارج. أينسونه مرميًّا في القبو بلا طعام أم يطلقونه؟

لاحقاً سيأتي نقولا ببطارية شاحنة ويشغل التلفزيون. سنرى الأسرى اللبنانيين والفلسطينيين في نهاريا. ستخاف أمي. تقول: ماذا لو

ظنوه مقاتلاً وساقوه مع المعتقلين. التساؤل سيصير يقيناً في الأيام المقبلة. ستصدّق وساوسها. تتسمَّر أمام الشاشة متمنية لو تتوقف الكاميرا أمام كل وجه من وجوه الأسرى. دبابات تهدر رافعة غباراً خلفها. أطفال حفاة عند جوانب الطرق يتسارعون لالتقاط سكاكر تلقى لهم.

تتوقّف أمي عن الذهاب إلى الدير. كأنها كبرت مضاعفة خلال الأسبوعين الماضيين. ثمّ ذات صباح، تقول لنقولا: «الله يلعن الشيطان ماذا يفعل بقلب الإنسان. أنسى أن والدك يعرف تدبير نفسه. سيقول أنا موظف محترم في مستشفى الجامعة الأميركية. كيف يكون مقاتلاً في سنه؟».. يبتسم نقولا، يثني على تفكيرها العقلاني أخيراً.

مطر أسود انهمر عند وجه الصبح. الشرفات والشبابيك مبقّعة بالوحل. السيّارات كذلك. ألوانها لا تبيّن بسبب طبقة الغبار السميكة. زال الحرّ. عادت النسمات لتُبرّد الصباح. أغسل الشرفة والدرابزين والأباجور قبل أن أجلس إلى الشرفة. عصافير الدوري تزقزق، متنقلة ما بين الشجرة والطابق الأوّل المهجور. أفتقد هنا غناء الطيور. في كليفلاند، ألوان وأنواع من العصافير لم أعهدها. مناقير حمراء أو زرقاء وبرتقالية، ريش موشّح بلون الفضة والرمان. في كل الأوقات يطغى غناؤها على كل الأصوات. تحلّق الطائرات الصغيرة على علو منخفض دائماً. يركض رودي إلى المرجة. يقف على رؤوس أصابعه ليلتقط جانحها. أقول إنها طائرة وليست طيراً. ليلاً يقسم جانحها القمر مثل سكين ماسي يقطع قالباً من الحلوى.

البارحة مساءً، اتصل أخي عبدو. لم أعرف صوته. أنسى أن لهجته خليجية. أحكي بصعوبة معه. شيء من الحياء يستقر بيننا. بالكاد أذكره في بيت أهلي. خلال الحرب ألغى معظم رحلاته إلى لبنان. صار يذهب مع عائلته إلى سنغافورة أو هونغ كونغ أو ماليزيا لقضاء عطلة. سألته عن حفيده. فرح. أخبرني كيف يأكل بنهم ويعرف جدّه قبل والده. يبتسم له ما إن يراه. هادئ، ينام معظم الليل والنهار. قليل البكاء. سألني

عن موعد وصول أنطوان، عن رودي وسالي. هكذا نحكي مع بعض منذ تزوجت.

خطف أبي ترك في وجهه حركة عصبية، لم تزل رغم مرور الأعوام. رجفة في خدّه الأيسر وغمز في العين، تزداد وتيرتها عند أي ضغط. أحياناً يخفيها بوضع يده على خده. في جنازة أمي بدا كأنه يغمز كل الناس. حركة تُربك كل من لا يعرفه. إذ لا ينتبه الناس إلى أنها حركة لا إرادية. لا نسأله عنها. نتظاهر بأننا لا نلحظها. عندما تسوء الأوضاع في لبنان وتشتدّ حدّة المعارك تكثر اتصالاته بي. كأنني مثل أمي ونقولا أعيش تحت القصف. تهدأ الأوضاع يسكت ولا يعود يحكي. انقطاع يستمرّ أكثر من سنتين أحياناً. في كلّ مرة، يجد فيها أنطوان في البيت يحكي معه لا أدري كيف يطيلان الكلام وهما التقيا مرّات قليلة قبل زواجنا وبعده. حين زار عبدو أميركا مع عائلته، لم ينزلوا عندنا بل في الفندق ليومين. ثم عادوا إلى لوس أنجلوس حيث أقارب زوجته.

أرتبك في حضوره. ثمّ أنه لا يحكي مثلنا. هذه اللهجة تغرّبه. لكن حين أنظر إليه، أرى ملامح من أبي أو أمي.

أتذكّر كيف كان يحملني عالياً في طفولتي ليضعني فوق ظهر الخزانة. بعدها يخيف أمي التي لا تجدني. لعبة كنت أحبّها. وتجفل أمّي ناسية ما نفعله في كل مرّة.

أذكر جفنها متورماً، لا يبين من عينيها إلا خطّ. رموشها الطويلة تساقطت ولم يبق إلاّ شعرات متفرّقة. رائحة الكولونيا تفوح من ثيابها دون أن تطمس روائح المرض وسخونة الأنفاس. في كليفلاند، كنتُ أرافق الأولاد إلى ضفة البحيرة ليلعبوا بدراجاتهم. أجلس على المقعد.

أرى عجائز كثيرين هناك. يتأنقون عصراً. في قبعات وبدل وأحذية لماعة كأنهم خارجون إلى احتفال. يمشون فرادى أو متأبطين ذراع بعضهم البعض، يحاذرون الحصى، والأولاد الراكضين دون انتباه. يبتسمون للأطفال. يجلسون فوق مقاعد الخشب، يأكلون «شيز كايك». أرى طبقة الجبنة البيضاء تذوب على مهل، عيونهم تبتسم لطبقة البسكويت الهشّة المقرمشة. تقليد يقومون به يوميًّا بتأنٍ. يتأمّلون ما يأكلون كأنهم يخشون أن تفوتهم تفاصيل القطعة السحرية بين أيديهم. حتى عندما يأكلون البوظة لا يتعجّلون مثلنا. ولا يتأمّلون البحيرة أو البطّ أثناء أكلها. يمعنون النظر في الألوان التي تسيل فوق ألسنتهم. أصفر الأناناس، أبيض الحامض، أخضر الفستق. أحمر الفريز. يشير الأطفال بأصابعهم نحوهم مطالبين أهلهم بتلك البوظة. لو أمي مثلهم، أفكّر.

أعجب من السهولة التي تعلّم فيها رودي وسالي ركوب الدراجة. التوازن فوقها هكذا أحسبه معقداً. لم يكن عندنا أي دراجة نحن، في صغرنا. نقولا تعلم كبيراً على ركوبها. عندما انقطع البنزين، كثر عدد الدراجات في الشارع. يستعير نقولا دراجة رفيق له ليأتينا بقنينة غاز أو صفيحة كاز من مكان بعيد أو حتى بغالون ماء. وقوعه عنها ولوي كاحله حرَّمه ركوبها ثانية. مكث في البيت أربعة أيام. يقفز على رجل واحدة للذهاب إلى الحمَّام.

أذكر عدة التمريض التي كنت ألعب بها. صنعتها أمّي بكاملها. خاطت لي زيّ ممرضة وقبعتها. صنعت بعيدان البوظة ميزان حرارة، رسمت عليه بالأحمر خطوطاً. كان لديّ سماعة وحقن. لا أذكر الآن مما صنعتها. لكنني لعبت بها طويلاً، أبي أتاني بحقنة حقيقية من المستشفى، لكن أمي أخذتها مني خشية أن أؤذي نفسي بإبرتها. «لا

تقولي لها ممرضة، هذه عدة الدكتورة» يقول أبي معترضاً. كان سهلاً عليها أن تصنع دمى. لكن أبي لم يعجبه الأمر. لذلك حصلت في كل عيد ميلاد على دمية. كل عام تكون أفضل وتقوم الدمية بأمور جديدة. من صامتة إلى باكية. من قصيرة إلى طويلة. يحبّ أن يرى ردة فعلي وأنا أستلم هديتي. يضحك أكثر مني. يسألني خلال سهرة العيد أكثر من عشرين مرة إن أحببت اللعبة. بعد خطفه ما عادت أمي تزيّن شجرة. ما عدنا نطبخ ديكاً محشيًّا. لا نصنع مغارة. لا نتلقى هدايا.

في صبيحة العيد، يكون برادنا قد امتلأ ببقايا من عشاء العيد في الدير. قطع متفاوتة الحجم لحلويات إفرنجية. أرز وصنوبر من حشوة الديك. حساء فيه رؤوس وأجنحة دجاج وشعيرية. تنادينا بعد عودتها. على الطاولة صحون تحاول تزيينها. الأرز على شكل تلة غرست في أعلاها غصن نعناع أو قطعة دجاج. حوله خضار ومخللات وزيتون. تخرج الأواني المحفوظة للمناسبات تسكب فيها الحساء. تعدّ كبّة كذابة. وأرزاً بالحليب للتحلية.

«أَدِمْ هذه النعمة يا رب» تقول قبل الطعام. تنهض عن الطاولة مراراً، كأنها تخشى الأكل. صحن نسيت أن تجلبه. طبق نسيته في الفرن. أكاد لا أتذكر طريقتها في الأكل. قلما أراها تفعل. دائماً هناك تعليق عمّا يحبّه أبي من الطعام ومالا يحبّه. تتساءل إن أحسَّ بالعيد. إن سمع أجراس الكنائس. تعدّ على أصابعها أعياد الميلاد التي فاتت وهو بعيد. تنتهي من الطعام، ويبقى دائماً حصة كبيرة لأبي الذي سيعود جائعاً.

بعد زواج عبدو صارت أمي إضافة إلى عملها في الدير، تصنع المربيات والمخللات. تبيعها لمن يوصي عليها. الجارة تحكي للأخرى.

المشمش والدراق، والكرز يكسد. لا أسواق لتصريفه. الطرق والمعابر مقفلة. تشتري منه كميّات وتصنع المربى أو الشراب.

تودع بعضها في الدكاكين المجاورة. نأخذ بقيمتها ما نحتاجه. «يا ست أم عبدو، تأخذين بضائع مطلوبة ومقطوعة من السوق مقابل مربيات لا تباع عندي. هذا ظلم لي. من أجل أن نبقى جيراناً وأحباباً، خذي مربياتك واشتري كالأوادم بنقودك». يقول لها صاحب الدكان. لا تقول هي شيئاً. تحمل المرطبانات. تقول لاحقاً ستأخذ الباقي. لا أساعدها. أدعها وأمضي. أمتنع عن مكالمتها. كل من في الدكان سمع المهانة التي عرضتني لها.

يطلب نقولا خدمة مني. دارين تحتاج لمن يصطحبها إلى السوق. تريد أن تشتري هدية لرفيقة دعتها لعيد ميلادها، وثياباً لها. هو لا يستطيع. زلفا متورّمة الفك بسبب قلع ضرس العقل. تخجل من الخروج بتلك الهيئة. أوافق بتردّد. لا فكرة لديّ عن المحلاّت أقول.

«دارين تعرف كل محل ولو في الصين، لا تخافي» يقول.

كيف يظنّ أنني أفضل منه في ذلك. كل ما تحتاجه سالي ورودي كنت أشتريه من المتاجر الكبرى حيث أتسوّق للبيت أيضاً. بعد الحادية عشرة، صارا يقومان بذلك وحدهما. يختاران ثياباً تشبه ما يلبسه من في عمرهم. أنا أيضاً أشتري من هذه المتاجر دون تدقيق فعلاً بما يناسب الموضة أحب بنطلونات الجينز والقمصان والقبعات القطنية. أقلعت عن شراء الثياب الرسمية كالفساتين. كنت أرتديها في المناسبات أو العشاءات التي ندعو أو نُدعى إليها. عندما يسألني أنطوان «ألن ترتدي ثيابك قبل مجيء الضيوف؟» أقول: «ها أنا أرتديها». يسكت مستغرباً نبرة في صوتي لم يعهدها.

لا يزال رودي حتى الآن شخصاً يستهتر بما يرتديه. حين تسجلتُ في الجامعة فوجئت بالشبه بينه وبين طلاب الفنون. الشعر نفسه،

القمصان الضيقة المربوطة عند الخصر. البنطلونات المهترئة عند الركب وفي أسفلها، حقيبة الظهر، الأحذية الرياضية الفاقعة، ، خليط يصدم العين. سالي هجرت الآن الثياب والأحذية الرياضية، لباسها صار رسميًا: بدلات وتايورات وأحذية ذات كعوب عالية: تقول «العمل يفرض ذلك». أنطوان يُعنى بماركة الثياب واسم المصمم، بأنواع العطور، بنوعية الأقمشة ومنشئها، بالشالات والأحذية. ثيابه تحتل الحيّز الأكبر من الخزائن. يعلم كل حذاء من أي جلد مصنوع. يوصي على بعضها من ألمانيا أو إيطاليا. « لا تكفيك الولايات المتحدة؟» أسأله. يحاول أن يشرح لي عن المحترفات اليدوية المشهورة في صنع تلك الأحذية. «ما القصد؟ أن ترتاح؟ لن تجد أفضل من الحذاء الرياضي.» أقول لأغيظه، عندما زاد وزنه، ظهر كرشه دون أن تخفيه القمصان الواسعة. قرّر أن يهتم أكثر بطعامه وبلياقته. ظننت أنه سيرافقني في رياضتي اليومية. للحظات خفت على تلك الساعات التي أقضيها وحدي. لكنه عاد مرّة محملاً بأكياس فيها الكثير من البدل والأحذية الرياضية. قال إنّه تسجّل في نادٍ رياضي. اعتقدت أنه لن يلتزم. سيذهب لأيام ثم يضجر. لكنه واظب متفقداً كل يوم وزنه، متأمّلاً ذراعيه وكرشه الذي راح يختفي فعلاً. عندما يسافر أيضاً، يسبح في الفندق إن وُجدت فيه بركة وإن لا ، يقصد مسبحاً لساعة على الأقل. يقف طويلاً أمام المرآة صباحاً، يقرّب وجهه، ينظر إليه من كل جانب لرؤية الشيب الأبيض الذي انتقل من فوديه إلى كلّ رأسه.

عندما تسجلت في الجامعة، كنت الأكبر بين الطلاب. أخبرتني ميلاني إنّ كثيرين يتسجلون وهم أكبر مني. لكنني لم ألمح أي شخص تجاوز أو قارب الثلاثين في صفي. في اليوم الأوّل، ظنّتْ إحداهن أنني المعلمة المسؤولة عن المادّة.

أجلس في الصف. أدوّن أسماء المراجع التي يذكرونها. أكتب كل كلمة. أحسّ أنني لا شيء. إذ يجيبون ببداهة عن أمور فاتتني تماماً. أنا الوحيدة التي تدوّن على الدفاتر كأنني تلميذة في مدرسة ابتدائية. حتى طريقة جلوسي مختلفة. أرتدي ثياباً كأنها تعود لقرن مضى. أنا في عمر أمهاتهم أو ربّما أكبر.

عند انتهاء الصف أهرع خارجاً، إحساس بالضيق وبأنني لا أعرف شيئاً. الروايات والمسرحيات التي تُسمّى لم أقرأها. الشخصيات فيها لم أسمع عنها. عندما يذكر الأستاذ مثالاً عما يشرحه، يذكر شخصية في المسرح الإغريقي أو من رواية معاصرة. ماذا قرأت في المدرسة؟ بعض شكسبير؟ روميو وجولييت؟ الملك لير؟ الآن لا أذكر شيئاً حتى. أكتب هذه العناوين. لاحقاً سأقصد مكتبة عامة. زحمتها تحرجني فأخرج بسرعة منها. أجد واحدة لا تبعد عن البيت كثيراً. كأنها خصصت لي وحدي. القسم الأرضي يطلّ عبر واجهة زجاجية على حديقة كبيرة. مقاعد تتوزع عند الزوايا. الوجوه نفسها. امرأة ستينية تضع نظارة عند أرنبة أنفها، تقلّب مجلات قديمة، أوراقها صفراء، أحاول أن أتطاول برأسي لرؤية ما تقرأ، أفشل. رجل أصغر مني، يبدو كمن يكتب كتاباً. يبحث بين الكتب، العشرات منها يجتمع أمامه. يكتب، أحياناً يملأ صفحات، أحياناً لا شيء، يكتب ويجعك الأوراق. في المكتبة أجد معظم المراجع. أقرأ صفحات، فصولا لا أفهم منها كلمة. القاموس لا يفك ألغازها . متى أفهم شيئاً أتمهّل أكثر. هكذا أتعرّف على مفهوم تلو الآخر. أكتب معجماً للكلمات والمفاهيم الجديدة. ألخص كل ما أقرأ على دفاتر مسطرة. في البيت أقرأ الروايات الجديدة. أكتب ما يتراءى لي محركاً لسلوكها. مع الوقت أتخفف من العصبية في العمل. يحلّ مكانها متعة في الدخول إلى حيوات وعوالم جديدة. بعد

الامتحان الأوّل ونجاحي في تقدير جيّد فيه، أرتاح أكثر في الصف. ما عدتُ أخشى الالتفات حولي أو تبادل كلام عادي مع من حولي، حتى الأساتذة حفظوا اسمي، رغم خشيتي من رفع يدي للكلام. يزدحم رأسي بشخصيات وكتب. كلّ مفهوم جديد أدرسه، أحاول أن أجد نموذجاً يمثله في الروايات. لا أجد وقتاً للاعتناء بالحديقة سوى في الليل بعد أن أركض قرب البحيرة. أحياناً لا أعود مباشرة، أقرأ هناك جالسة عند الضفة. بتّ أحمل في حقيبتي كتباً ودفاتر وأقلاماً.

الموظفون في المكتبة يعرفونني كأنني مثلهم موظفة. الرفوف لم تعد غريبة كما كانت. العناوين والأغلفة مألوفة بالنسبة إليّ. أحمل معي سندويشات أعدّها في البيت. أرتاح جالسة في الحديقة، آكل بينما الكتاب مفتوح فوق ركبتي. معظم الأوقات لا يجدني أنطوان في البيت. يعجب من هوسي الجديد بالمكتبة. لا أخبره إنني في الجامعة. اسمعه يقول عبارات لم أسمعها منذ زمن: «اشتقنا لكِ. متى كانت آخر مرة جلسنا مع بعض أو سهرنا؟»

رودي سيكتشف الأمر وحده. دفاتري المرتبة في رزم ستلفت انتباهه. لا شيء يغيب عن عينه. لم أتوقّع أن يفرح هكذا. ردّة فعله ستؤثر بي. أبدو كطفلة أمام ميلاني عندما تسألني: ماذا تعلمت؟ لم تنه هي دراستها الثانوية. بدأت العمل في الرابعة عشرة. تقف أحياناً عند السياج الفاصل بين حديقتينا، خصوصاً عندما يتأخر الوقت. تحبّ أن أحكي لها قصصاً قرأتها. تتحمّس أحياناً وتستعير بعضها. تردّها لاحقاً دون أن تقرأها. تقول إن العمل في المطعم يقتل فيها الحياة تسخر من معلوماتي في علم النفس. «كلام فارغ» تقول عنه. تضحك عندما نطبقه على من نعرفهم. تقول إنه كالتنجيم، قد يصيب وقد لا يصيب مثل أي

كلام. في أحيان أخرى تسألني كأنني بت أفهم أعماق وأسرار كل إنسان. تحكي عن دافني ابنتها. تريد أن تعلم بماذا أخطأت لتنفر منها، وتهرب من البيت. أذكرها بأنها في مراهقتها فعلت الشيء نفسه، فلِمَ الاستغراب؟ تقول إنها كانت تكره بيت أمّها وزوج أمّها. أمّا دافني فمن يزعجها؟ ما الذي ينقصها؟ تستطلع وجهي كأنني سأقول الكلام الشافي.

عندما تكون مواعيد المحاضرات متأخرة. أضبط المنبه على الخامسة صباحاً. أقود السيّارة إلى غابة الدراجات كما أسميها. هناك كان الأولاد يلعبون بدراجاتهم. باكراً قلة من يقصدها. أركض في طريق الدراجات. الضوء ينفد شاحباً، كلما تقدّمت. العتمة تبقى في الغابة مدّة أطول. أغصان الشربين والسنديان والأرز تمتد كالمراوح الضخمة فوق رأسي. هدهد يحط على غصن قرب وجهي. غناء تصدح به طيور ترمقني بعينها. غربان تزعق بقوة. الأوراق تتكسر تحت قدمي.

رائحة رطوبة وبعض عفونة. الشمس تتسلل بصعوبة إلى قلب الغابة حتى في عز الظهيرة.

أسمع أنفاسي تتلاحق، قدمان تفتتان أبر الصنوبر، تتعثران تسرعان أكثر فأكثر.

شتاءً يختلف الضوء، يكون كالحليب. الرائحة أيضاً. الثلج يتريث فوق الأغصان. الصقيع يصفع وجهي. الهواء يدخل بصعوبة إلى الرئتين. الأنفاس تصير شهيقاً عميقاً.

يشكو نقولا أنه مؤخّراً يظل يتذكر قصصاً عن أمّي. لا شيء كالسابق. أغص باللقمة، يقول. أخجل من نفسي عندما أنزعج من الحرّ أو من الزحمة. لا يدري لماذا تؤلمه أخبار وقصص كان يعرفها طوال عمره. تخطر قصة على باله وتلحّ على خياله فتقلقه. كأنها تحدث الآن أمامه... يحكي لي أن جدّتي كانت محمومة. أمي في الرابعة. خالتي أكبر منها بقليل. أيام تمضي، لا يعلم بأمرهن أحد. جدتي تهذي فوق فراش ابتلّ عرقاً وبولاً. لا شيء في الغرفة سوى الماء والبرغل. تبلان البرغل بالماء حتى يطرى، تأكلانه ليلاً على مهل كي تتمكّنا من النوم. تضعان رقعاً مبلّلة فوق رأس جدّتي. رأتاها تفعل ذلك طويلاً مع جدي قبل أن يقتله المرض. ذات صباح تدق الباب قريبة لأبي. تصفعها الرائحة لحظة دخولها. تعدل عن فكرة النوم عندهم، رغم سيرها الطويل وتعبها. في جيب ثوبها حبّة علكة واحدة تخرجها بعد تردّد. تقلبها داخل راحة يدها. ثمّ تناولها لخالتي. تحتار خالتي. لا تعرف ما هي هذه الحبّة. تفهمها أنها علكة. تقول «امضغيها ألا تعرفين العلكة؟ أمضغيها طعمها مسك». تلوكها فيما أمي تتعلق عيناها بحركة فكّها، تتوقّف خالتي. تبصقها في راحة يدها ثمّ تعطيها لأمي. تتناوبان ليومين آخرين على علكها حتى تذوب كليًّا، تؤجلان بذلك الإحساس بخواء معدتهما. لاحقاً ستزول الحمى، ستنهض جدتي جلداً على عظم.

يتذكّر نقولا جدّتي عكسي أنا. كالخيال البعيد تلوح لي بقامتها المديدة. يذكر زياراتهم لها أيام الآحاد، حبّها للطعام الذي تحضره أمي. دعواتها الكثيرة خصوصاً لأبي.

عندما يتصل أنطوان يقول أن الكلية بعثت رسالة أخرى. عليّ أن أردّ سريعاً على عرض العمل. لكنني أحسّ كأن كل ذلك حدث في حياة أخرى، بعيدة الآن عني. عندما بدأت عملي تملكني الخوف. فكّرت بأن أتراجع. رغم كبر سني فإنني أعمل للمرّة الأولى. كيف سأواجه هذا العالم الجديد.. لا أستطيع تخيله. لأسهِّل الأمر عليّ فكّرت أنّ من سأتعامل معهم هم مئات لكنهم يشبهون سالي ورودي. أنا ربيتهما. أعلم مصاعب كلّ عمر ثمّ إن اختصاصي يساعدني على فهمهم أكثر. في اللحظة التالية. أفقد شجاعتي. أتذكر أنهما اثنان وفشلت غالباً في فهمهما. من قال إنّ قراءة الكتب ستجعلني أقدر على العمل؟

الضغط جعلني مجدداً أضاعف ساعات السير والركض. مساءً بتّ أعرج على مطعم ميلاني. أتبرع بمساعدتها. تكرّر أن الزبائن يحبون السندويشات التي أعدّها. فلِمَ لا أشاركها العمل؟

أجلس خلف البار. تحت الأضواء الخافتة، تشحب الوجوه. التجاعيد تظهر كلها. أيدي العمال ترفع كوباً من البيرة كمن يرفع صخرة من بئر. ثقل في اللسان والحركة آخر النهار. بعضهم في بدلة العمل الكحلية. شعار المعمل الأصفر يوجّ عند الجيب. سائقو الشاحنات يغطّون أحياناً في نوم عميق. لا توقظهم الموسيقى أو المباراة الجارية على الشاشة ولا جلبة عمّال يتحدثون كلهم في الآن نفسه. يحكون عن خلاف أحدهم مع المشرف، عن الساعات الإضافية غير المدفوعة، عن حفلة شواء يتداعون إليها الأحد... النساء أيضاً محور أحاديثهم. لا

مشكلة ولا حرج في أن يحكي عن زوجته كيف تنغّص عيشه، وتصرف دون حساب، أو تتهمه بالكسل في حين تلازم هي البيت ولا تعمل، أو تطرده رامية أغراضه كأنه ليس من دفع كل أقساط البيت. مشاكل طلاق، نفقة، أولاد يهربون من البيت، يشربون الكحول، يتركون المدارس. إنها المشاكل نفسها التي سأسمعها لاحقاً ما إن أبدأ العمل. الفرق أن الشباب لا يرتاحون للكلام العلني إلا في ما ندر. عقاباً لي، يجلسون قبالتي صامتين، نظرة إزدراء يرمونني بها بين لحظة وأخرى. بداية يتملكني الخوف. ماذا لو كان لرودي وسالي المشاكل نفسها. كيف يمكن أن أكون عمياء هكذا. فتاة في الثالثة عشرة حامل. لا تعرف ممن. لم تعاشر أحداً تقول. حدث ذلك دون علمها. أنظر إلى وجهها الأبيض، إلى جسمها الطفولي، أفكر أنها لم تكبر حتى. المشكلة تتعقّد حين نستدعي الأهل. بطريقة ما نصبح المسؤولين، أنا أو المدير أو المدرسة. هناك من يختلق القصص أيضاً عن آبائهم وأساتذتهم. أحياناً لا أشك لحظة في صدق ما أسمع. يلزمني وقت لأتعلم التشكيك في كل أمر أسمعه. ميلاني تعتاد أيضاً أن تسمع تلك المشاكل التي تحيّرني. «مكانك لعملت مع الشرطة. صرت خبيرة في كل أنواع المخدرات وأقراص الهلوسة والدعارة المنظمة عبر الانترنت» تقول.

هل أشتاق فعلاً لوظيفتي؟ أظن أنني لن أعود إليها. رغم دوامي القصير، ضاع كل وقتي. استولت على أفكاري. كلما حاولت إبعادها تحضر أقوى. كل مشكلة أسمعها، أستعيدها بينما أركض أو أعمل في الحديقة. يتشتت انتباهي، فلا أعود أفهم ما أقرأ. وجوه جديدة تدخل إلى عالم مناماتي. وحده أنطوان يتحمّس لعملي. يحب أن يخبر الناس عنه. كذلك فعل عندما علم من سالي بأنني أنهيت فصلين في الجامعة بنجاح. لم يسألني لماذا لم أعلمه. كانت السنوات ترسم بيننا ما يشبه

الحدود حول ما يقال وما يُسأل. حذر استقرّ دائماً بيننا. أعتذر إنْ أدخل بغتة دون أن أقرع باب غرفة النوم. يأتيه اتصال. أبتعد أو أخرج إلى المرجة. يريد أن يسافر أو يخرج في عشاء أو يتأخر، أدير ظهري قبل أن يتخبط في شبكة معقدة من الأعذار.

بدوري وجدت نفسي بعد أن غادرت سالي وكبر رودي غير مربوطة بشيء. غريب أن يتسع الوقت ويطول هكذا فجأة. لم يحزنني بعادهما. صحيح أنني أفتقدهما لكنني صرت خفيفة. لا شيء يربطني. لا وقت أعود فيه إلى البيت. لا طعام أعدّه في مواقيت معيّنة. بدل أن أطيل نومي، صرت أستيقظ في وقت أبكر. أرافق ميلاني لشراء السمك الطازج، يتخبّط خارج السلّة التي نحملها. تصفق أذيالها معصمنا مرات قبل أن تستكين. أو نشتري خضاراً وفاكهة، لم تجف عن قشرتها حبات الندى.

نجلس في غبش الفجر. نحمل فناجين كبيرة من القهوة. يلسعنا البرد فيما نراقب سمكة فضية تتخبط عند طرف صنّارة.

هذا المشوار نقوم به مرّة أو مرّتين كلّ أسبوع. أنا من يوقظ ميلاني عادة بالقرع على شباك غرفتها. لا أستخدم المفتاح الذي تتركه داخل ثقب في جدار السقيفة.

ستزعل ميلاني من مقاطعتي لهذه المشاوير الصباحية. ستلقبني بالمثقفة لإغاظتي. ألم أنشغل بالجامعة عن معظم ما نقوم به معاً؟ تقول إننا نلتقي كاللصوص خلسة أو صدفة، لكنها تعتذر بسرعة خشية أن أظنّها جادة.

أرى صورتي منعكسة على شاشة التلفزيون. أضبط حركاتي الرياضية. أرفع ذراعيّ بشكل مستقيم حاملة قنينة ماء في كل يد. نقولا أعارني التلفزيون رغم رفضي. قال إنه سوف يسلّيني. أقلّب قنواته الأرضية، مرّة، مرتين، ثلاثاً. لا شيء سوى المسلسلات أو البرامج الحوارية. أطفئه. أفضّل الجلوس على الشرفة خصوصاً بعد أن يبرد الهواء وينسحب الناس إلى الداخل. يصفو الليل. تطفأ أجهزة التلفزيون. تعتم الشقق واحدة تلو الأخرى. وحدها الكلاب تسهر حتى الصباح. الهررة أيضاً يكثر مواؤها فجراً. هدوء تقطعه سيّارات الإسعاف. سيّارات أخرى تطلع من شبابيكها موسيقى. ترتجّ لوقعها موجات الهواء.

أستعيد رسالة إيڤان على المجيب. أحاول أن أتخيّل صوته المخنوق. من أين كلّمني. من الجامعة؟ أم من بيته؟ لا. لا يحبّ أن يكلّمني من البيت. لكنّ سنوات انقضت، قد يكون خلالها تبدّل. ماذا قال؟ كلمات عادية قد يقولها لقريبٍ بعيد، لزميل قديم في العمل. ليست كلمات مميّزة. ربّما أفرحه أمر ما. رغب أن يشاركني به لا أكثر.

كنت أدخل المكتبة كل يوم. الوجوه كلّها حُفرت ملامحها في ذاكرتي. بعضهم يشيح بعيداً ما إن يلمحني. تغضبه نظراتي، لا يفهم سرّ تحديقي. هناك موظفة ترمقني بعدائية ما إن ألوح في الباب.

لكلّ واحد مكان وعادات، تتكرّر كلّ يوم. أعرف مواعيد قهوتهم، طعامهم، من يزعجهم بين زملائهم والروّاد. وحده إيڤان بدا غارقاً كأنه فوق جزيرة أخرى. ما يلفتني في وجهه الجيوب المنتفخة تحت عينيه كأنّ نقطة زيت يغلي طارت وأصابت تحت العينين بحروق، فانتفخ الجلد كبالونات صغيرة. هذا التورّم الدائم يصغّر حجم عينيه الزرقاوين. عادة أخاف العيون الزرق. لكنه هو ينظر كمن يبهره مصباح قوي. ينزع النظّارتين عن عينيه. أرى العلامات الحمر التي يتركها الإطار عند جانبي أنفه. يكون مستغرقاً في مجلد أمامه. يرفع رأسه لاحقاً. يشرد، يمرّر يده فوق جبينه مرّات متتالية كأنه يستدعي فكرة تستعصي عليه. يبدو جسده محشوراً بالقوّة فوق الكرسي. يجلس منحنياً. عقد أصابعه تظهره عامل بناء لا موظّف مكتبة. شعر أبيض تخالطه شعرات حمر قليلة. تحت ضوء الفلوريسون تلمع كالنحاس المعتّق. ينسى ذقنه دون حلاقة أسبوعاً، تنبت لحيته قليلاً، فيكبر عشر سنوات على الأقل. لا لأنها بيضاء، بل لأنّ شحوبه يقوى. أظافره تبقى طويلة، صفراء. الرواد يسألون الموظفين الآخرين. هو يجلس منهمكاً. كأنه مثلنا يأتي إلى المكتبة لينصرف إلى شؤونه الخاصة.

يكتب أحياناً على أوراق صغيرة أمامه. يحدّق بثبات إلى كل ما يقع في مجال نظره دون أن يرى. يبتسم أو يضحك لشيء يحصل داخل دماغه. الموظفتان تتصرفان معه كأنّه زائر، تتهامسان، تتداعيان لشرب القهوة. لا تلتفتان نحوه. أحزر أنه يخرج ليدخّن عندما ينهض عن كرسيه. أنفاسه تُسمع عالية. تُحدث صوتاً كالصفير. ليس بديناً لكنّ طوله يظهره ضخماً وعريضاً. دائماً يوقع الأشياء. قد يكون كتاباً يتناوله عن الرف، أو قلماً أو يضرب فخذه بطرف الطاولات، أحياناً يُبعد الكرسي بقوّة، فترتفع الرؤوس إليه للحظة. أفكّر أنّ ضخامته هي السبب في ثقل حركته

وتعثّر خطوه. على هيئة واحدة يجلس يوماً تلو الآخر.

أجلس قبالة الواجهة، أرى الحديقة تبدّل ألوانها من يوم لآخر. عصافير تنقر التربة بمنقار طويل أبيض وبرتقالي، تلتفت حولها، تشرب ماء تجمّع بعد مطرة الصباح. أهمل كتب الاختصاص. أقرأ روايات. أتخيّل نساء في فساتين طويلة. بقبّعات عريضة الحواف وقفّازات مخرّمة، بهواً تزيّنه الرسوم يلمع بلاطه المزركش كالمرايا. في الخارج أحصنة تصهل بقوة. ثلج يغطّي العربة. يعلق نثاره فوق رؤوس الأحصنة الصهباء.

كان الطقس ماطراً عندما رأيت إيڤان للمرّة الأولى خارج المكتبة. الثلوج بدأت تتساقط بينما أقود سيّارتي. ينزل النفناف كنجوم صغيرة تضويها الأشعة الغاربة. تومض وتنطفئ بالمئات أمامي. المساحات تواريها. البحث الذي أعمل عليه يضجرني. أتذرّع بمئة حجّة لأتهرّب منه. عندما يتراكم عليّ الدرس، أندم على الصدفة التي دفعتني لهذا الاختصاص. ماذا يحصل لو قضيت بعض الوقت عند ميلاني؟ أنطوان في تكساس وأنا وحدي في البيت منذ أيّام. ترحّب بي أكثر من العادة ما إن تلمحني. الحركة مجنونة عندها تقول. الكلّ يحاذر القيادة في مثل هذه العاصفة. يفضّلون التريّث والبقاء عندها. الحرارة العالية تصفعني ما إن أدخل. الطاولات ممتلئة والبار مزدحم. الناس يجلسون متقاربين متلاصقي الأكتاف حوله. صوت التلفزيون يضاعف الإحساس بالضجيج. يرتج دماغي كسفينة أغرقها موج البحر في لحظة.

أراه أمامي مستنداً إلى البار، يشرب كأساً من البراندي. أمامه صحيفة مطوية. يقرأ فيها باستغراق مقالاً ما. يرفع رأسه لاحقاً. يطلب كأساً أخرى. يسألني دون مقدّمات: «هنا تعملين؟» أرتبك أهو مجرّد

سؤال مجاملة للنادلة. أم تعرّف عليّ ويستغرب عملي هنا؟

- لا، أساعد صديقتي. أردّ مشيرة بأصبعي ناحية ميلاني. شرب كأسه. طوى جريدتهِ. حشرها دون عناية في جيب بنطلونه. نزع نظارتيه. راح ينظف عدستيهما بقطعة قماش مراراً وتكراراً. يستمرّ في ذلك طويلاً غير منتبه. يتناول لائحة من لوائح الطعام المكدّسة، يعيد وضع نظارتيه، يقرأ كل كلمة فيها. أتعجّب من جلوسه في المطعم. عمله بعيد. ثم إنّ لا بيوت قريبة. لا شيء يجاور المطعم سوى المعامل وبعض الحانات. ربّما ينتظر شخصاً ما. لاحقاً سأراه يلتف بشال صوف أبيض موشّح بالبني يلبس الجاكيت العسكرية التي أعرفها جيّداً ويخرج.

ترتبك ميلاني من نفاد معظم أنواع اللحوم عندها. تقول إنّ ثلاجّتها لا تتسع لأكثر من ذلك. ثمّ، إنّها لم تتوقّع هذا الغزو وهذه الأعداد... نتفقّد معاً ما لديها. نقترح على الجائعين أنواعاً مختلفة من العجّة. تتحوّل عصبية ميلاني إلى ضحك صاخب. عندما نبدأ معاً بإضافة مكوّنات غير معتادة إلى البيض. أعداد أخرى تدخل المطعم بعد انتهاء الدوام الليلي، بعضهم يجازف أخيراً ليقود رغم الطرقات الزلقة والضباب الكثيف. بعد الثلوج أمطار عنيفة تقرقع كالحجارة فوق السطح. أكثر ما يضحكنا عندما يطلب أحدهم صحناً آخر كالذي أكله. تسألني: «ماذا أكل، أتذكرين؟»

تخفّ قوّة العاصفة. أخرج رغم إلحاح ميلاني ألّا أقود في الطريق وحدي. تريد أن أنتظرها لنترافق. أخبرها عن البحث الذي اقترب موعد تسليمه.

بعد ربع ساعة، أراه. أعرفه من انحنائه وثيابه، واقف وحده أمام موقف للباصات. رغم خفوت الضوء، أرى البلل قد أغرق ثيابه كلّها.

لا يبين من وجهه ورأسه الملفوف إلا نظارتاه. أتوقّف. أناديه ليدخل السيّارة. يفعل دون أن يعلم من يدعوه. أسأله المكان الذي يقصده. قبل أن يردّ يسألني «أتعملين سائقة تاكسي؟» احترت، أيكون جادًّا؟ ضحك حتى اختفت عيناه تماماً، وبانت أسنانه الصفراء الكبيرة.

في السنوات الثلاث الأخيرة، ازداد انصرافي إلى المكتبات. يحلو لي أن أقضي ساعات في متاجر كتب مستعملة أجمع أكداساً من الكتب. الكتاب بدولار واحد. يتأفّف أنطوان من الفوضى التي تُحدثها. يقول إنّها جاذب للحشرات.

أشتري رفوفاً، أركّبها بنفسي في غرفة سالي. لن تعترض، أفكّر. ليست من الأولاد الذين يخافون على مطارحهم. عندما غادرت إلى الحرم الجامعي. تصرّفت كأنّ الغرفة لم تعد تخصّها بعد الآن. في العطل، تسألني والحقيبة أمام قدميها «ماما أين أضع أغراضي؟» بدايةً ظننت السؤال واحداً من ألاعيبها ومشاكساتها. لكنها ستستأذن لاحقاً قبل استخدام أي شيء في البيت. تقول إنها لم تحمل ما يكفيها من المناشف، فهل لها باستعارة واحدة؟ أو تريد استخدام الغسالة لأنّ ثيابها اتّسخت. تتجوّل في البيت بحذر من يتعرّف على مكان غريب لأوّل مرّة. أحياناً تشير إلى إناء قديم رسمتُ عند جوانبه. تبدي إعجابها به. أخبرها إنه هنا منذ كانت طفلة. حقاً؟ تقول مشكّكة. تسأل عن أشجار في الحديقة، عن مقاعد قصب على الشرفة.

أصرّ عليها لتأخذ غرضاً أعجبها كالشالات التي اشتريتها من معرض باكستاني. عندما تقبل، يعني ذلك أنها ستأتيني بهدية بالمقابل.

أشتاق لمزاحها، لتهكمها على أفكاري. يؤلمني تهذيبها. أنظر إلى شعرها الكستنائي الغزير. تركته يطول، أفكّر. كانت دائماً تحبّه قصيراً. أظافرها مطليّة، كانت تقضمها حتى تغور تحت الجلد. عيناها وحدهما بقيتا على حالهما، مزيج من الشيطنة والذكاء. منذ صغرها، تربكني كيف تحزر كلّ شيء من نظرة. لكن صمتاً ترسخ بيننا. تفرضه بتكتّمها الشديد حول كل ما يتعلّق بحياتها. أخجل أن تغدر بي دموعي في وداعها. تنظر إليّ كأنني قمت بفعلة لا تغتفر. تعجبها رفوف الكتب. تقول إن تلوين الجوانب بألوان مفرحة يجعلها متناسقة مع الحديقة التي تطلّ من النافذة. رودي كعادته نظر إلى كلّ ذلك بعينه الثالثة، الكاميرا التي لا تفارقه. قرّبها من بعض العناوين. سألته إن كان قرأها. قال إنه لم يفعل. لكنّ عناوينها شاعرية وموحية. يسألني كالأطفال إن كنت قرأتُ كلّ هذه الكتب. «كيف ذلك. لو قضيت ساعاتي دون نوم، لن أنتهي من قراءتها قبل سنوات».

هكذا اعتدت أن أفتح نافذة الغرفة. أجلس على كرسي هزّاز. أقرأ. قبالتي الجهة الغربية من الحديقة. أفرح بمكاني الجديد. مرّات أنسى إغلاق النافذة فيغضب أنطوان. يحذر منذ حدثت سرقات في بيوت مجاورة. ركّب أجهزة إنذار في كل مكان حتى في القبو. أي متسلل باتجاه البيت يتسبّب بعاصفة من الأبواق المزعجة. قد يكون سنجاباً أو طيراً حطّ ليرتاح تحت السقيفة، أو عصفوراً يضرب النافذة ويقع مغمى عليه.

تنصحني ميلاني بأن أُبقي الزجاج متّسخاً لأحمي هذه العصافير المسكينة.

كلّ رواية أقرأها، أفكر أنّ إيفان ربّما سبقني إليها. أحدس أيّ مقاطع قد يحبّ. بعد أن رحل إلى ميسوري، لم يبعث لا رسالة ولا

بطاقة. كلّ مرة يرنّ فيها الهاتف، أقفز من مكاني. في عيد ميلادي قلت قد يفاجئني ويتصل. ثم ضحكت من نفسي. يكاد لا يعرف متى وُلد هو. كل مناسبة، أنتظر. لاشيء، صمت يطول، أدرّب نفسي على القبول بالأمر، أصبح قوية. في اللحظة التالية، أهوي كجدار من رمل.

بعد شهر أسترجع عادة النهوض باكراً. بدل الساعة أركض ساعتين. لا يهمّني الألم والحريق المشتعل في مفاصلي. أركض حتى أقع أخيراً عاجزة عن التنفّس. وخز في الصدغين والصدر وأسفل الظهر، اشتعال في القدمين كأنهما تضاعفتا حجماً، كل شريان فيّ ينبض حتى يكاد ينفجر.

بعد أن أوصلته بسيارتي ليلة العاصفة، صار يتوجّه نحوي ما إن يراني. كأنّ معرفة قديمة تجمعنا. يأكل معي السندويشات التي أحضّرها. نفعل ذلك في حديقة المكتبة. بعدها نقف عند زاوية البناية. هو يدخّن سيجارتين متتاليتين. يأخذ مجّات طويلة، تشرقط النار، تطير، تترك ثقوباً في ثيابه وثيابي. سجائر بلا فلتر. أعتاد رائحتها التي تلتصق بثيابي أيضاً. تستغرب ميلاني رائحتي. تداوم على سؤالي إن كنت أدخّن. أنفي الأمر فلا تصدّق. أضيق بها وبالسؤال المتكرّر: «هل أنتِ أمّي مثلاً؟ لِمَ برأيك قد أُخفي عنك أمراً تافهاً كهذا؟» لاحقاً عندما أبدأ بالعمل أقول إنّهم زملائي الذين أرافقهم في جلسة تدخينهم.

أوقفت السيّارة أمام بناية قديمة. قال إنّه لا يسكن فيها. هذا بيت شقيق زوجته. أشار إلى نافذة مضاءة في الطابق الثامن. عندما سألته تهذيباً إن كان يريدني أن أنتظره، أجاب بلى. يريد فقط أن يطمئن عليه. وعد زوجته أن يفعل. كان بينهما موعد الليلة لكنه لم يأت. سمعا أنه خسر عمله في معمل البلاستيك.

لا ينزل وحده بل برفقة قريبه. عملاق مثله، ينحنيان وهما يدخلان السيارة، عرّف عني باسم غير اسمي قائلاً إنني زميلته. بعدها تحدّثا بلغة غريبة لم أسمعها سابقاً. في كليفلاند تعلّمت أنّ أميّز لغات عديدة ما إن أسمعها. كالصينية والإسبانية والإيطالية والفارسية. لم أعلم لماذا بدّل اسمي إلى تانيا. لاحقاً سيستمر بمناداتي به. لا أصحّح له. بعد زمن سيكتشف أنّ تانيا ليس اسمي. سألني في السيارة إن كنت رومانية؟ قلت، أنا لبنانية. حاولت أن أدلّه إلى موقعه. قاطعني متحدّثاً عن حربنا الأهلية. عن لبنانيين درسوا معه في بلده. كان يحب طعامهم. «الحمص بطحينة». يقول إن طريقتي في التحديق جعلته يظن أنني رومانية أو تشيكية. «هل هذه ميزة تخصّ هذه الشعوب؟» يراني أضحك. يسكت واجماً. لا يردّ.

بعد شهور سيخبرني إنه كان مثلي يحدّق بكل وجه. حتى بالطفل الصغير إن مرّ قربه. يرتاب من أن يلحق به أحد. حيث يذهب هناك من يتبعه ويترصّده. في المدرسة التي يعمل فيها أستاذاً، في الصف بين تلاميذه، في المتجر. في شقّته، يزور أمّه، يرى أحدهم في أعقابه. استغرق أكثر من ثمانية شهور تخطيطه للهرب. كان عليه أن يبتكر طرقاً لمقابلة كل من سيؤمّن لهم أوراقاً، من سيقلّهم ويدلّهم. في البيت يتكلّم مع زوجته همساً. أو يكتب على قصاصات ورق، يحرقها لاحقاً. متحفّزاً يبقى عاجزاً عن النوم. ماذا لو وضعوا أجهزة تنصّت في شقتهم؟ لا شيء يعوقهم. يمنعها من زيارة عائلتها خشية أن يزلّ لسانها بكلمة، أو أن يدفعها حبّها لهم إلى إظهار عاطفة زائدة. سؤال سيجرّ سؤالاً آخر وهكذا ينكشف الأمر.

كانت زوجته كلّما اقترب الموعد تطيل تأمّل ما حولها. تسأله

لماذا لا يأخذون معهم شيئاً. يجيبها بإيماءات ليفهمها أنه سيخرجون ثلاثتهم بالثياب التي عليهم. اختار يوم عطلة. اعتادوا فيه باكراً زيارة أمّها في الضاحية. هكذا لن يثير ريبة أحد. تعرّف على زوجته في مخيّم للشبيبة. أرسله إليه أبوه رغماً عنه. ظنّ أنّ ذلك سيحسّن صورته. لم يعرف أنّه سيُنقل إلى أقاصي البلاد بعد شهر.

تعلّم الفرنسية والإنكليزية وحده. بضع روايات كان يقارن بينها وبين ترجمتها في لغته الأم. لم يصبح طليقاً باللغتين لكنه يستطيع أن يعبّر بهما عن نفسه.

اعتاد في حديثنا أن يشبّه الناس بشخصيات روائية. يحكي عن بلاده. عن طعم الخبز فيها. عن مبانيها القديمة وساحاتها المغمورة بالثلج، عن جمع الفطر من الغابات، والسباحة في البحيرات الباردة. زوجته لا تحبّ أن يعودا ولو لزيارة. لا تصدّق أنّ كل شيء تبدّل. حتى بعد أن قدم أقارب ووصفوا كيف تمتلئ المحلات الآن باللحوم والسكر والحليب. هناك أحذية وثياب مختلفة تشبه ما يرتديه الممثلون. الناس يسافرون متى شاؤوا.

يعلّمني كلمات بلغته، كيف أقول صباح الخير مثلاً. أعلّمه بدوري كلمات بالعربية: «أمي»، «أبي»، «أخي»، «ابني». كلمات تتمحور حولها معظم أحاديثه.

يتصل أنطوان. يؤكّد أنه سيصل بعد ثلاثة أيام. أمّهِ سترسل السائق ليقلّه من المطار. صوته متعب. أسأله. يقول إنه تنقّل كثيراً مؤخّراً دون راحة. ثمّ هناك تأخير في وصول البضائع.

أذكر عندما خطر ببالي أن أجد لقريب إيڤان عملاً في مستودعات الشركة. كان أنطوان قد عاد بعد العاشرة. وقت مبكر نسبياً.

كنت وحدي أقرأ رواية فيها وصف لزهر الكرز فوق جبال لم يذب الثلج عنها تماماً. نظرت إلى المرجة. الضوء يعلق عند رؤوس أعشابها المتمايلة. ضفادع تنقّ مجتمعة قرب المرشّة التي ترشح ماء. لم أسمعه يدخل. وجدته فجأة أمامي يتكّئ إلى الجدار الواطئ. كيف أحتمل الجلوس في البرد. ينظر إلى الشال فوق كتفي. يرغب في قطعة لحم وخضار مشوية وكأس من النبيذ. فهل أحبّ أن آكل معه؟ يسألني.

- أتعتقد أنّ الكرز يمكن أن ينبت في حديقتنا؟ أي طقس يلائمه؟

أسأله. لا يردّ. يرتبك. سابقاً، كان سؤال كهذا يستدعي سخريته. لكنه منذ زمن بات يتصرّف معي كأنه دخل إلى أرض مجهولة. تبدّلت ردود فعله. لا يطلب الآن شيئاً إلا بطريقة مواربة.

كثيراً ما أعود فأجده ساهراً، لا يسألني من أين جئت. أنا أيضاً

لا أفعل. الكلمات التي ينطق بها تصبح مدروسة. تعليقاتي وردودي تُجفله. يعاتبني بحذر عندما أسخر من شيء قاله أو من شخص يثني عليه.

رفعت رأسي عن الكتاب. انتبهت إلى النحول الذي حفر تجعيدتين كبيرتين حول فمه. شفتاه رقّتا أكثر وغارتا كأنه ابتلعهما.

- «انطوان، أتحتاج عاملاً في المستودعات؟ لا يهمّ نوع العمل، تحميل، مراقبة، تفريغ، قيادة شاحنة؟».

كانت المرّة الأولى التي أتدخّل فيها في أمر يتعلّق بعمله. ذهوله يسكته طويلاً «هو قريب أستاذ يعلّمني» يستمرّ في صمته. أفكّر: أي كذبة غبية التي أقولها. منذ متى يُحدّث أستاذ جامعي تلامذته بشؤون أقاربه. كدت أضحك. لكنه أجاب: «نحتاج في الواقع سائقاً».

سيرفض إيڤان لاحقاً عندما أخبره. «ليس عليك إقحام نفسك في مشاكلي، ثم إنني لم أطلب منك ذلك، أنت لا تعرفينه. أتكفلين أنه لن يتسبّب بمصيبة؟» يؤلمني جفاء جوابه. لا يحاول مراضاتي بل يردف: «كيف يمكن الوثوق بشخص كحولي؟ أكيد سيغفو أثناء قيادته». استمرّ في غضبه كأنني فعلاً انتهكت أمراً مقدّساً بالنسبة إليه. كانت أوّل مرة أزعل فيها منه. أدرت ظهري. قدت لأكثر من ساعتين. فكّرت فيما بعد أنّه لم يخطئ. أنا التي أخذني الحماس. ظننت أنّ بإمكاني أن أخفّف عنه عبء مشكلة على الأقل.

لا أستطيع أن أعتبر إيڤان لطيفاً. لا يهمّه ماذا أفكّر. يقول ويفعل ما يريده. عندما يعتكر مزاجه، أعجز في إقناعه بنزهة في الحديقة مثلاً. لا يصدّق أنها قد تريحه. يدير ظهره شابكاً يديه خلفه ويسير لأكثر من ساعة. تتبعه غيمة دخان. أنتظر أن يتصل بي خصوصاً بعد غيابي أيام عن

المكتبة. لا يفعل. لكن ما إن يلمحني أدخل من الباب حتى يُسرع نحوي موقعاً كتباً تعلق أطرافها بكمّه أو بطرف الجاكيت. الضجة تنبّه الآخرين إلينا. يسألني إن كنت سآخذ استراحة. كأنني مثله كنت منكبّة على الكتب. يحبّ أن يخبرني كيف يتقدّم بأبحاثه. قريباً سينال شهادته، أفكّر. ماذا لو وظِّف في جامعة خارج الولاية؟

المرّة الأولى التي دخلت فيها إلى المكتبة ووجدت مقعده شاغراً، مكتبه فارغ، قلقت. فتحت الكتب أمامي. تظاهرت بالقراءة. فوّت كلّ المحاضرات، انتظرت حتى موعد الإقفال. لم يأتِ. لم يعطني رقم هاتفه. أنا أعطيته رقمي. هو لا. أعرف بيت قريبه. لكن ماذا أقول له؟ «انتظرت إيفان ولم يأتِ».

في اليوم التالي، دخلت مع بدء الدوام صباحاً... لم يصل بعد، قلت. ربما تأخّر، الزكام في سنّه قد يكون سيئاً. ليس شاباً ليتحمّل تقلبّات الطقس الفجائية ونزول الحرارة أكثر من ست درجات في اليوم الواحد. اليوم الثاني كان الأصعب، حتى التظاهر بالقراءة شقّ عليّ، مكثت في الحديقة. أنظر إلى الأعشاب ترتجف تحت زخّات مطر متباعدة.

عندما نتمشّى في غابة. يقول إن غابات بلاده أجمل وأكثر وحشية. لم يفسدها البشر بعد. كان صغيراً عندما صار يخرج لقطف الفطر. نظرة واحدة تكفي ليميّز السام منه. يعرف أيضاً منابته فيتجنّبها. لأن غباره أيضاً يؤذي وليس أكله فقط. ليست الأشجار هي ما يلفته بل تلك الجذوع الضخمة المتهاوية فوق التراب. جذوع ثخينة. تنبت فيها حياة تختلف عن كل ما حولها. بعضها يتغطّى بالخز الأخضر المخملي. أخرى تنبت فيها زهور غريبة ملوّنة. سيقانها رفيعة تتمايل مع كلّ هزّة

هواء. تنشر رائحة حلوة تمتزج بعفونة الغابة. فوق كل جذع نبتات فريدة، من بعيد تبدو كحدائق معلّقة في الهواء. سيقطف عنها أطيب فطر. لا أحد مثله يتجرّأ فيتوغّل إلى قلب الغابة حيث لا تبارح العتمة. هكذا يمشي من الضوء نحو الضباب وعالم الأخيلة. أمّه تفرح بالكمأة، بالفطر، بالكستناء، بالهندباء البرية يملأ بها سلّته. أولاد الجيران يخافون مرافقته. تفزعهم الأصوات والحيوانات. كل شيء في الداخل أكبر، يقولون البومة بحجم نعامة، العصافير كالدجاج. الأرانب والخنازير بحجم الجواميس.

محظوظ، يقولون عنه منذ صغر. أليس أكثر من تعلق العصافير في أفخاخه؟ تعدّ أمّه يخنة عصافير وكستناء وفطر.تبقي الكمأة لحين تجتمع العائلة. شهور من أكل الخبز والبطاطا التي تزرعها في الجلول القليلة أمام بيتهم. بعد هربه سيصادرون منها تلك الجلول. سيقولون إنها تبيع بطرق غير مشروعة محاصيلها. لا تصرّح بالكميات الضخمة التي تنتجها.

بعد غيابه ذلك عن المكتبة سيخبرني كيف هرب برفقة زوجته جوّانا وابنه أندريا. كان في شهره السابع. طفل هانئ يرضع وينام. يستيقظ فيحدث نغمات تشبه الضحك. رحلة يقطعون معظمها مشياً. لن يصلوا إلى الحدود إلا ليلاً. رغم أنه الربيع. الهواء جليدي. غمرت رأس أندريا تماماً بغطاء صوف، وضعت ثديها في فمه خشية أن يحدث صوتاً، قطعوا بحيرة أو نهراً على ظهر خشبة مسطّحة. تهبّ الريح فتؤرجحها حتى تكاد تسقطهم. الأضواء الكاشفة تنير ما حولهم. يبدون بعيدين جداً عن نقطة التفتيش. عند الضفة ستة يجلسون القرفصاء. لا يتبيّن وجوههم، لا يعرف الرجل من المرأة، لا أحد يجرؤ حتى على الهمس. ساعات أخرى من السير الصامت. لو يقول له أحد أين هم،

يستريحون في مغارة أشد صقيعاً من الخارج. فيها آثار موقدة، وبقايا أطعمة عفنة. الدليل معهم يرفض أن يشعلوا أية نار. لن يفسدوا الأمور. هم على وشك أن يدوسوا أرضاً جديدة. لم يقل لهم أحد إن الأرض الجديدة ستكون بعيدة هكذا. عليهم أن يعبروا قبل أن يطلع الضوء. يشير الدليل إلى ثغرة محفورة تحت الشريط الشائك. الأشواك والصخور تخفيها عن النظر، أعطوا الدليل المبلغ المتفق عليه. قال إن دليلاً آخر ينتظرهم في الجهة الأخرى. زحفوا ببطء واحداً تلو الآخر. لم يصدّق أن أجسادهم الضخمة نفدت من هذه الخروم الضيّقة. لم يكن الضوء قد طلع. استمروا في السير أندريا يبكي بكاءً متقطّعاً. الوحول تجمّدت جليداً فوق ثيابهم. لا يسمع سوى صوت أسنان تصطك. رغم ذلك يسرعون، كل ذلك يدفئهم. باستثناء أندريا ما كان أحد يهمس كأنهم لم يعبروا الحدود. كل في أعماقه يخشى أن يكون الدليل قد كذب. ألم يسمعوا قصصاً مشابهة عمن خُدِعوا وأُخذوا إلى قرى نائية وسُرِقت أموالهم؟... لن يحصل له أو لعائلته الشيء نفسه، فكّر. حزم أمره وقرّر الهرب بعد ولادة أندريا، لا يريد له حياة كالتي عاشها.

الضوء يطلع، الثلج يبين أزرق كالمحيط. ضباب حولهم، لا أحد يجرؤ على التساؤل عن الدليل الآخر. كأنّ مجرد السؤال فأل سيئ. تظهر الوجوه بيضاء شيئاً فشيئاً. رغم صغر سنّهم عيونهم غائرة، قاماتهم محنية.

ينتظرون الضوء كأنه الأعجوبة، الخلاص. الضوء يقوى. الجبال تمتدّ أمامهم بيضاء. الضباب يخفيها تارة ثم يظهرها. يرجئون السؤال. ربما الدليل سيصل بين لحظة وأخرى، لن يسير مثلهم ليلاً. لعلّه لن يأتي، أمقابل حفنة من الدولارات سيتكبّد كل هذا العناء؟

الأنفاس تتجمّد أمام عيونهم. تتوقف جوّانا عن السير. تسأل: «أهذه هي البلاد التي وعدتني بها؟ جبال الثلج؟». يقع واحد بينهم. يُغمى عليه. يفركون أطرافه، يدثرونه بمعاطفهم..

«أعطني أندريا، أعطني أندريا»، تقول جوّانا. يفشل في تهدئتها. تستمرّ في الدوران حول نفسها في كل الاتجاهات «يا ربّ» لا شيء ثلج. ثلج... انظر، هل ترى أي ظل لبيت؟»

هلعها يعدي الآخرين. ينهالون عليه بالأسئلة. كأنه أرغمهم على هذا الهروب. الفزع والبرد والجوع. الأحذية تتشقّق. يسدّون الشقوق بأوراق وصور يحملونها. القفّازات تسرّب من ثقوبها الريح. يرتاح عندما يتصاعد الضباب. على الأقل ستتوقّف جوانا عن القول بأن لا شيء هنا سوى الثلج، ستظن أنّ خلفه بلداً وبيوتاً وناساً.

يفتّت قطع خبز، يضعها في فم أندريا، لا يلوكها. يخلع معطفه، يلفه به عدّة لفّات. كيف يعلمون أنهم يتقدّمون باتجاه العمران؟ ربما يتوهون هنا ويموتون لن يعلم أحد بهم.

«أعطني أندريا، أعطني ابني». يهمس في أذنها أنه أقوى، حمله ثقيل عليها. في الطريق يسقط اثنان. ينزعون عنهما الثياب السميكة، يتقاسمون المال والخبز. لا نوم منذ أيام.

دخان يرتفع في الجو غير بعيد. يتعانقون، يبكون، يستعيدون قوتهم «أندريا نائم» يقول حين تحاول انتزاعه من ذراعيه.

ـ «أعطني ابني».

أخرج مع نقولا بعد العاشرة ليلاً. تزعجه الأماكن المغلقة مؤخراً، يقول. يشق عليه احتمال العمل جالساً إلى مكتبه. ينهض عن كرسيه عشرات المرات في اليوم. يتجوّل بين الموظفين. أحاديثهم تشغله عن أفكاره.

أنصحه بعطلة طويلة. لا يدري ماذا يفعل بها. يخشى أن يكون تأثيرها أسوأ، يقول.

يختار مقهى رصيف، كراسيه وطاولاته وسط شارع صغير، محاط بأبنية مرمّمة حديثاً، روّاده قلائل. الكل يفضّل المقاهي جهة الوسط التجاري، الناس يحبّون الزحمة يقول.

شرفات مستديرة، عليها أحواض من الزهور الحمراء. في الضوء الخفيف تبدو كجمرات السجائر. أمامنا صالة عرض. خلف واجهاتها الزجاجية، لوحات جدارية. يتلاعب الضوء، فيحرّك شخصياتها، تتماوج كأنها تغادر أماكنها. الأرض مبلطة بحصى ملوّنة بالفيروزي والأخضر. بركة غير بعيدة. نسمع سقسقة نافورتها. دراجات صغيرة متروكة قربها.

يريد نقولا أن أجرّب سلطة القريدس والأفوكا. لست جائعة. أريد

فقط كوب بيرة. أقول. يطلب لنفسه سلطة بحرية. صحن على شكل سفينة في وسطه أرز مغطّى بقطع أناناس مشرّب بصلصة بيضاء فيها حبوب حرّ خضراء مستديرة وألوان حمراء لن أعرف ما هي. حول الأرز أنواع مختلفة من الثمار البحرية. ينقر بشوكته حبّات الأرز مباعداً بينها كأنه يغربلها. لا يأكل. يرفع عينيه نحوي يقول إنه لا يستلذّ طعم أي شيء. يتذكّرها. يخجل من نفسه على الدوام. يستعيد قصة ما. تدور كالأسطوانة في رأسه. لا يحبّ أن يخبر زلفا هذه القصص. أوّلاً هي لا تعرف شيئاً عن عائلتنا. ثمّ إنّ الكلام لن يريحه. ستقول له: «هذه حياة أمّك، لست مسؤولاً عمّا جرى قبل أن تولد حتى». الموضوع لا يتعلّق بالمسؤولية. يتذكّر أن أمّي وأختها تركتا لحوالي الأسبوعين عند خالتهما كي تتمكّن جدّتي من العمل. بضعة قروش لتؤمّن خبزاً ولتدفع أجرة الغرفة. توافق خالة أمّي على مضض. لديها عائلة ترعاها وصغار يحتاجونها. لا تنقصها أفواه إضافية لإطعامها، تقول. تذكر أمّي رائحة اللبن تحرّكه هي فوق النار، تقف على طبلية عالية لتطاله. خالتها مشغولة بكبة الحيلة، تبرم إصبعها فتستدير الكبة، سمراء. اللبن يبقبق، رائحته تفوح. تبتلع أمي ريقها الذي يفيض. فيما بعد، ستجلس وأختها في الزاوية لمراقبة الزوج والابنين والخالة يأكلون. تنهرهما الخالة ليغضّا النظر «تريدان أن نغصّ؟» تقول.

في المأوى عندما ترتفع حرارتها. تنسى غالباً أنّ من يجلس قربها هو أخي. تذكر اسم والدها أو اسم أبي فرنسيس. تخبره أنّ الممرضتين سهيله وهيلانه تمرّان بغرفتها، لا تكلّمانها. توزعان الحلوى وكبّة بلبن على الجميع. هي، يأتيانها بمهلبية رخوة وساخنة، وشوربة دون ملح. يستغرب نقولا، قبل أيام كانت واعية تماماً. لا يقول لها إنّ سهيله وهيلانه كانتا ممرضتين منذ ثلاثين عاماً ولم تعودا كذلك. كيف يعقل أن

تبقيا شابّتين؟ عندما تهلوس تذكر أسماء ناس. تقول إنها تراهم هنا يتجوّلون. ينظرون إليها ولا يحكونها. تحكي عن الأمر بحسرة. نقولا لا يخبرها إنّ ثلاثة أرباع من تذكرهم أموات. الطبيب أكّد أنها لا تعاني من خرف. هذيان ناتج عن الحرارة والألم. تذكر أختها. تذكر اسمي كثيراً. تقول إنني أشغل بالها بذهابي إلى المدرسة دون ترويقة ولأنني أقتل نفسي بالدرس لأصبح دكتوره. تحكي عن شجرة توت عند باب إدريس. تعدّد محلات قريبة منها. تقول إنها تحمل أطيب توت. لكنّ الجميع يسبقها إليها. لا يتبقى إلا حبّات قليلة مشكوكة فوق أغصانها العالية. يأتيها نقولا بكبّة ولبن، بكنافة، بتوت أحمر... يجاهد كي تفتح فمها وتأكل، لا تفعل. بعد لقمة تشبع.

عندما زاد الحرّ، طلبت منه الراهبة أن يشتري قمصان نوم صيفية. ثياب نوم بيضاء عليها ورود صغيرة، أو زهرية فاتحة مقلّمة بالأبيض. اختار ما يحتمل درجة الغليان في الغسالة. الخياطة طرّزت اسمها بالكامل عليها. يمسك يدها ما إن يدخل غرفتها. يضع يداً أخرى فوق جبينها. تفتح عينيها نصف فتحة. تنظر إلى قمصان النوم يفردها أمام عينيها. تقول إنها جميلة. تسأله لاحقاً من أين اشتراها. تسمّي أسواقاً ومحلات لم تعد موجودة منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً.

عجائز يمشون متّكئين على عكازات في روبات مربعة أو مخططة، ضاعت ألوانها. على رأسهم قبّعات صوف أو شالات، يتمشّون بين أحواض الزرع. يقتربون من السيّارات المركونة. يلصقون وجوههم بزجاجها متأملين ما بداخلها. أحدهم يمسك بذراعه. يسأله لماذا أطال غيابه هكذا. يحتاج زوجين من كلسات الصوف ومجمعاً من الحلاوة بطحينة. عجوز أخرى توقفه عند باب المصعد، أنفاسها

المريضة تسبقها وتختلط بالهواء. تناديه باسم ما. يكبس الزر قبل أن تلحق به. كلّهم يوقفونه. هو الأب أو الابن أو الدكتور الذي يشكون له أوجاعهم أو الكاهن الذي سيستمع إلى اعترافهم.

«قومي يا أمي لنمشي». يقول لها بعد أسبوع من دِخولها المأوى. «انظري إلى الحديقة جميلة في الأسفل. هم أكبر منك. كنت تمشين. لِم لا تفعلين؟».

«سأفعل. لكن ركبتي الآن توقعاني. في المشوار الثاني سأقوم إن شاء الله».

يسكت، يرفع الشوكة إلى فمه. كلانا ننظر إلى السماء فوقنا. ثلاث نجمات بعيدة. رائحة تنباك تعبق قوية. دجاج يُشوى على الفحم. انتصف الليل، ساعة قديمة في داخل المقهى تدقّ اثنتي عشرة مرة.

تتصل زلفا، يقول لها أن تنام، ألا تنتظره لأنه سيتأخّر.

أتذكّر ما قاله إيڤان عن مرض زوجته. يعلم أنه ليس المسؤول عن مرضها. لكنه رغم ذلك يخجل لأنه معافى. يخجل لأنه لا يعاني لا من الضغط أو الكوليسترول ولا أي مرض آخر. يخجل لأنه يمشي كالحصان. يواصل حياته. يعمل. يدرس. يسعى ليصبح أستاذاً في الجامعة. هي ترقد معظم أيامها في البيت أو المستشفى. صحيح أن موت أندريا سبب لها مرض السكري. لكنّ ذلك لم يُقعدها في أوّل الأمر. عملا كلاهما. هو مساعد طبّاخ في مطعم صيني. هي عاملة تنظيف في شركة يرسلونها مع غيرها إلى مصارف أو مؤسسات. يقومون بتنظيفها خلال الليل، قبل طلوع الضوء.

كانت حياة غريبة، يقول. يلتقيان لساعات قليلة فقط. لكنّ جوانّا ستذوب لاحقاً بسبب السكّري. نحول وضغط دم، انسداد في شرايين

القلب. بعد بلوغها الأربعين ستتعطّل كليتاها، ضعف قلبها لن يسمح بإجراء عملية زرع لكلية. تذهب إلى المستشفى مرتين كل أسبوع لتقوم بغسل الكلى. يشتري لها كعكة شوكولا وأنواعاً تحبّها من الحلويات. أثناء غسل الدم يسمح لها بأكل ما حُرِمت منه عشرات السنين. لديها أصدقاء بين المرضى. ست ساعات تقضيها برفقتهم في كلّ مرة. بعضهم ينتظر دوره للحصول على كلية منذ أكثر من سبع سنوات. عندما تتعب، تستصعب السير ودخول الحمام. يحملها. لا تزن شيئاً. تعجز عن النوم دون مهدّئات. حتى عندما تأخذ دواءها تأرق. تتكلّم مع إيفان. تذكّره ببيتهم هناك، بالنجوم الكثيرة تنتشر في سمائهم، بضوء القمر المستدير ينعكس كالبحيرة وسط الثلج، بحقول السنابل الذهبية. بالنهر يسبحان فيه قبل الضوء. «تريدين أن نعود؟» يسألها. تقول: «إلى أين؟».

لا أرافق السائق إلى المطار. أحضّر عشاء خفيفاً. لم أتغدّ مع أخويّ. عبدو الذي وصل ظهراً إلى بيروت، يقول إنه هلك حتى يجد مقعداً على الطائرة. لو لم يتخلّف راكب لما كان جاء. ينقل إليّ سلام رفيقة كانت معي حتّى صف البريڤيه. بالكاد أذكرها. لو لم يكن اسمها غريباً لما بقي في ذاكرتي. زوجها يعمل في السعودية. قالت إننا كنا صديقتين مقرّبتين. لا أذكر أنه آنذاك كان لديّ صديقة مقرّبة.

موجة أخرى من الحرّ بدأت منذ البارحة. يرنّ الهاتف:

- «مرحباً. أنا في المطار. أنتظر حقائبي»، يقول أنطوان.

- تأخرت أليس كذلك؟

- بلى، انتظرنا ساعتين إضافيتين في لندن.

- في أقلّ من ساعة ستصل. لا زحمة في هذه الساعة.

- سأرسل حقائبي إلى بيت أهلي. ما رأيك؟

- كما تشاء. ألن تتعشّى؟

- بلى بالطبع. غداً أذهب إلى جونيه. ليس اليوم.

اشترى من السوق الحرّة عطوراً لأخته ولأمّه. يريني إياها. يسألني

رأيي بعلبة سيجار لأبيه. أقول إنني لا أفهم مثله بأنواعها. هو أخبر مني.

أخجل من حضوره. أسكت طويلاً متحاشية النظر إليه. ربّما لأنني لم أره منذ أكثر من خمسين يوماً. اشترى لنقولا نوعاً فاخراً من الويسكي. يزعل حين أذكر عبدو. يقول كيف فاته أن يحضر له شيئاً. ربّما لأنّ عبدو يكون دائماً في السعودية. يناولني علبة من المخمل الكحلي. أفتحها. سلسلة ذهب يتدلّى منها حجر كبير لونه كالشمام. أشكره. أعيد ترتيب العقد كما كان في علبته.

الكلام عن سالي ورودي يخفّف ثقل الوقت وصعوبة الحديث. ينقل إليّ شكر ناديا التي أفرحها أن يكون هناك شارٍ لبيتها. آخر الشهر ستُوقّع الأوراق. ربّما ظنّت أنّ لي دخلاً في البيع. لا تعرف أنني الآن علمت بالأمر.

يساعدني في المطبخ. يتكفّل بفرم الخضار المغسولة للسلطة. أقوم أنا بتقليب الدجاج والبطاطا اللذين أشويهما في الفرن. أرضية الفرن مثقوبة في عدة مواضع بفعل الصدأ. يضحكه البراد والغاز. يقول إنه نسي تماماً أنّ هذه القطع الأثرية لا تزال موجودة. لا يريد أن يشرب إلا البيرة. خلال الرحلة أكثَرَ من الويسكي. يشتكي مراراً من الحر. أحمل الطاولة الواطئة إلى الشرفة. نأكل في الخارج. يغفو لاحقاً على كرسيه. شخير خفيف ينتظم ويقوى كلّما استغرق في النوم. لا أوقظه.

رأيتُ إيڤان جالساً على مقعد قبالة البحيرة. قربه فتاة صغيرة. تأكل سندويشاً من الزبدة والشوكولا. على فمها فتات خبزٍ، يمسح فمها بمحرمة. وجهها طويل أصفر. عروق جسمها الزرقاء الدقيقة بيّنة للعين. كأنها لا تقوى على حمل رأسها. تحنيه يميناً ثم يساراً. تنظر إليه بعينين مستديرتين. رجلاها طويلتان دقيقتان كقصبتين. في قدميها حذاء أكبر من

مقاسها. يقع فينحني ليلتقطه ويعيده إلى قدميها. أسأله عن عمله الجديد، لا يسمعني. ينشغل في رفع خصلة يطيّرها الهواء فتخفي عينيها. أسأله أن نذهب معاً إلى غابة قريبة. يقول إنّ عليه أن يُنيم جوانّا. يقوم. يحملها بين ذراعيه. ينظر إليها بعينين متوّرمتين. يغني لها أغنية بلغة لا أفهمها. تغمض عينيها كجوزتين كبيرتين.

رنين الهاتف يوقظ أنطوان فزِعاً. نسي أين هو. إنها أمه. أحمل الأطباق إلى المطبخ.

غريب كيف صارت الأشياء أليفة حولي. أعرف الجيران في الشقق التي نطلّ عليها. هناك امرأة عجوز. من بعيد كأنّها أمّي. تنهض قبل الشمس. تعيش وحدها في بيت قديم الأثاث. ستائر مخمل بهت لونها. طاولة سفرة، يتوسّطها إناء فيه فاكهة اصطناعية، أفقدها الغبار ألوانها. في غرفة الجلوس جلود خراف وبساط عليه مربّعات نبيذية وكحلية. تعدّ قهوتها في ركوة نحاسية لها غطاء على رأسه عصفور. أشمّ رائحة البن. فساتينها واسعة كلها. ربّما كانت بدينة سابقاً. تجلس على الكرسي لتكنس الأرض. يلزمها وقت لتنهي كنس غرفة. تنقل الكرسي جرًّا في أرجاء الغرفة. تلتفت نحوي بين حين وآخر. لا أظن أنّها تراني. تسقي نبتاتها كل يوم. نصف كوب لكل واحدة. تخشى أن ينزل الماء فوق البلاط. أحبّ لو أراها تأكل. لكن مطبخها من الجهة الأخرى. لا أراه.

قالت لي: «نامي يا ابنتي هذه الليلة عندي. غداً سأعدّ لك مناقيش بكشك. لديّ تلفزيون. لن تضجري. نامي عندي» شدّت على يدي. نظرت إليّ برجاء.

ارتبك نقولا: «لا يسمحون لنا يا أمي». نظرت حولها. أشارت إلى السرير الفارغ على بعد متر. «الغرف فارغة يا ابنتي، أخوك مسافر وأبوك لديه حراسة هذه الليلة وأنا وحدي».

لم أقل شيئاً. خرج نقولا مقهوراً. سأل الراهبة: «لماذا تُضيّع هكذا؟».

تؤكّد له أنّ أوجاعها كبيرة. هي تهذي فقط. صلّي من أجلها. تقول. لا تفلت يدي عندما أهمّ بالخروج. انتهى وقت الزيارة يا أمي، يقول نقولا. في السيارة التي ندخلها متجنبين الوجوه المجعّدة التي تبتسم لنا، يجلس نقولا. يداه ترتشعان. يجهش بالبكاء كصبي ضعيف، أربّت على كتفه. يكرّر عبارة واحدة: «يا الله... يا الله».

عجوز يلصق وجهه بالزجاج ناحيتي: «نقولا. انظر. إنه صاحبك» أقول. يداوم هذا العجوز على مناداة نقولا باسم ابنه. يجاريه أخي مربّتاً على كتفه. يشتري له أحياناً حلويات خصوصاً الحلاوة بالطحينة. لكنّ المسؤولة نبّهت عليه بلهجة قاسية ألا يفعل. بعضهم ممنوع عن الكثير من الأطعمة. ثم إنهم يتشاجرون أحياناً بسببها. كلّ يدّعي أنّها له.

أعددت لأنطوان سريراً في غرفة النوم. اشتريت ملاءات جديدة. نمت كالعادة على الكنبة العريضة.

لا أدري كم كانت الساعة عندما فتحت عيني. وجدته واقفاً أمام الكنبة، مرتدياً منامة زرقاء مخططة بالأبيض. جلست. فقعد بدوره عند حافة الكنبة. قال إنه لا يستطيع أن ينام. الحرّ شديد. ربّما بسبب فارق التوقيت، قلت له.

- لا ليس ذلك، لم أنم منذ ثلاثين ساعة.

نخرج إلى الشرفة، أحضّر فنجانين من اليانسون. ليلة دامسة. لا قمر ولا نجوم في السماء.

زهرات الياسمين تتساقط من الأعلى فوق شعري. تسبح في اليانسون. تغطي منامة أنطوان. تملأ الجوّ برائحتها. أنظر إلى زهراتها مشكوكة فوق الدرابزين العريض كعقد من اللؤلؤ.

يمكث أنطوان في بيت ناديا. يغيّر رأيه. يذهب عند أهله إلى جونيه في زيارة. يُحضر معه حقيبة صغيرة فيها ثياب وبدلة سوداء. أسأله عن الحرّ. إنْ كنتُ أنا أتحمّله هو أيضاً سيعتاده، يقول.

عند مغيب الشمس يهبّ نسيم حلو. نستعيد الإحساس بالربيع. يقترح أنطوان أن نذهب للسير. أسأله أين لأغيظه.أعلم أنّ مكاناً واحداً يشتاق إليه.

رغم أنّ الساعة تجاوزت السابعة مساء. تستمرّ الورش في حفر ونبش شارع الحمراء. أشرطة تمتدّ على طول الأرصفة المنبوشة لمنع المارة من الاقتراب. لافتات كُتب عليها: احذر... حفريات. في قسم منه بانت البلاطات الجديدة التي حلّت مكان الإسفلت. ندلف نزولاً. لا يتوقّف أنطوان عن استغراب التغيير. لا أذكر فعلاً البنايات التي يزعل على زوالها في شارع بلس، فأنا لم أرب مثله هنا. يحكي عن الشبابيك والأدراج الخلفية، الحدائق، أشجار الكافور والتوت والأكي دنيا. عادة قبل أن نصل إلى بيتهم، البيت الذي عاش فيه طفولته ومطلع شبابه، يبدأ بسؤالي: «لنرَ أتذكرين بيتي؟» كأنّ بإمكاني أن أنسى. نحن لا نتفقّده من بعيد مرّة أو مرّتين كلّما جئنا إلى لبنان. بل كلّما مررنا قربه راكبين أو ماشين، أو عائدين من سهرة. لم يخبره أحد. يقول واقفاً أمام ورشة

بناء. الجرّافة تهدر فتهتزّ الأرض من تحت أرجلنا. البناية ذات الطوابق الثلاثة بالأباجور الأحمر. لم تعد موجودة. ولا السطيحة المحاطة بدرابزين من الحديد المطروق. لافتة كبيرة عليها رسمٌ للبناية التي تُعمّر مكان القديمة. ستة عشر طابقاً. واجهتها من زجاج. فيها أربعة طوابق سفلية مخصصة كلها لمواقف السيارات. شروحات أخرى حول مساحة الشقق وأرقام للاتصال. يسير واجماً. يفقد حماسه المعهود في لعب دور الدليل. الزحمة في شارع الجامعة الأميركية تبعدنا بسرعة. أقترح عليه السير جهة كورنيش البحر. لا يقبل. الزحمة أكبر هناك، يقول.

نقولا وعبدو يمرّان بنا خلال السهرة. نقولا يأخذ إجازة ليتفرّغ لعبدو. بضعة أيام فقط ويعود عبدو إلى السعودية. يضمّني عبدو شادًّا رأسي تحت ذراعه كأنه سيخنقني. منذ طفولتي يقوم بهذه الحركة. يداوم على سؤال أنطوان «كيف تجد أختي الصغيرة؟» سؤال يُضحك أنطوان ويربكه كأنه مضطر للجواب عنه. خصوصاً إن عبدو لا يتوقّف عن ترداده عفوياً.

الكنبة تصبح أصغر ما إن أعجز عن النوم. أجد صعوبة في التقلّب فوقها. الهواء الذي يدخل من باب الشرفة بارد. يداعب وجهي. أغمض عينيّ. بدل أن أغرق في النوم. أفيق تماماً. لم يكن الأرق يزعجني في الشهرين الأخيرين. كان بوسعي التحرّك وإضاءة اللمبات كما يحلو لي. الآن قد أوقظ أنطوان إن انشغلت كعادتي بالرياضة أو التنظيف أو تلميع زجاج النوافذ. عندما يرى نقولا ما أفعله يضحك، متهماً إياي بالجنون. يسألني لمن ألمّعه؟ إلا إن كنت عازمة على شرائه. الساعة الثالثة إلا ربع. يريد أنطوان أن أوقظه عند السادسة. توكّل هو بالذهاب إلى الفرن ليأتي بالطلبية. بضع دزينات من القرابين. أصرّ على نقولا ليفعل. يرفض

نقولا بداية. «هل أنا غريب؟ ألست من العائلة؟» يسأله أنطوان.

أنهض من الحلم والضوء يطلع. رائحة البن تعبق. أعلم أنها العجوز تبدأ صباحها. رأيت أمّي بوجه يشبه وجهي. توقظنا من نوم حلو. رائحة قورما وبيض يأكلها أبي جالساً على الشرفة تحت الياسمينة. تُذَكِّرنا أننا ذاهبون إلى النهر. عادةً نبقى الأحد في البيت أو نزور جدّتي عندما كانت على قيد الحياة. كنت نسيت تماماً هذا المشوار. الحلم أعاده إليّ. كم كان عمري؟ خمس سنوات ربما.

أكوي القميص الذي سيرتديه أنطوان مع البدلة. أحضّر القهوة قبل أن أوقظه.

الطريق إلى الكنيسة بعيدة. الطرقات الجبلية مزدحمة كلّها. كي لا يضيع عند المنعطفات، سار أنطوان خلف سيّارة نقولا. على المقعد الخلفي علب كرتونية مكدّسة فوق بعضها. تطلع منها رائحة حليب وسكر.

عدد كبير من الناس وصل قبلنا إلى الكنيسة. مقاعد الخشب الأمامية تركت فارغة من أجلنا. الرجال في جهة والنساء في أخرى. لا أذكر أننا كنا نجلس متفرّقين هكذا. أقف قرب أخويّ. يقف أنطوان بجواري بعد أن أوصل القرابين. على المذبح مزهريات قديمة فيها زهور كتمّ السمكة. أخرى فيها زنبق أو منتور أو قرنفل. الشماس يضع مسند الإنجيل. صبية صغار في بنطلونات كحلية وقمصان بيضاء. يقفون متقاربين. على مستوى نظرهم كتاب للأناشيد والتراتيل. ألمح في الجهة الأخرى أقارب وأهل أنطوان. أخفض رأسي. أحدّق بحذاء أنطوان يلمع كأنه نُظّف بالزيت. أحتار بيدي. أشبكهما.

أرتدي قميص أمي السكري. الأكمام رقّت عند الإسوارة. لونه يميل الآن إلى الرمادي. خيط ذهبي رفيع لا يزال على حاله عند أطرافه. أنطوان يشدّ على يدي كلما جلسنا. كم يبدو عبدو عجوزاً، أفكّر. يرتدي قميصاً أبيض دون كرافات. تبين الخطوط في عنقه الذي أحرقته الشمس. نقولا ينظر إليّ بطرف عينه. أضع يدي على ذراعه. رائحة البخور قوية حيث نجلس. لوحة كبيرة خلف المذبح. ملائكة كأطفال صغار بيض بشعور شقراء مجعّدة. أقوم مع الواقفين. ثم أجلس ثانية. أستعيد كلمات وصلوات كنت حفظتها في طفولتي.

«طوبى للمساكين بالروح لأنّ لهم ملكوت السماوات. طوبى للحزانى الآن لأنّهم يتعزّون. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ لأنهم يشبعون...».

التعازي في الجهة الغربية من الكنيسة، يقول الكاهن. دارين وزلفا وقفتا بيني وبين نقولا. وجوه كثيرة. نساء في شعور مصفّفة. ثياب سوداء، تخالطها ألوان كالأبيض والرمادي. العبارة نفسها، أكرّرها همساً. أحدهم يوزّع علينا أكواب ماء. عجوز بلا أسنان، لا أفهم ما يقول. سيخبرني نقولا إنه كان رفيق أبي في صباه. يعزينا.

حشود من الوجوه الغريبة تكرّ. بعضهم يضمني ويقبّلني كما ستفعل قريبات أنطوان وزلفا. أو يسأل عبدو «أين أختك الصغيرة». يومئ نحوي ذاكراً أسماءهم. الكاهن آخر من يعزي. يدعو بعدها الجميع إلى صالون الكنيسة.

أذهب برفقة أخويّ، لا نركب السيارة كما أراد نقولا. الناس جالسون أمام منازلهم حول طاولات بلاستيك. يهوّئون للحم يُشوى على الفحم. يأكلون بزورات وقطع خيار وبندورة. يرفعون كؤوس العرق.

يمعنون النظر فينا. يتساءلون بأصوات مسموعة عمن نكون... واحد يقول: أولاد المخطوف ابن. . .

يقلّ العمار كلما اقتربنا من المقابر الجديدة. الصليب الخشب الأبيض، يبدو من بعيد.

الشمس قوية في الطريق. يخلعان الجاكيت. العرق يبقّع قميصهما. من الجهة الثانية من الطريق واد متدرّج الانحدار. بيت وحيد يظهر عند السفوح. نسمع أصوات ساكنيه البعيدة.

يصرّ باب الخشب الذي نفتحه. حول المقابر أشجار سرو لم تكبر بعد. مدافن نمرّ بها. بعضها واسع. أمامه تمثال ملاك أو للعذراء. شموع مضاءة أمام بعضها. باقات متعفّنة. شتول صغيرة مزروعة في أصص بلاستيك. مزهريات ورود وضعت حديثاً. صور لأطفال، لعروس في فستان عرسها، لشاب في بدلة تخرّج.

الشمس تثقل فوق رؤوسنا. أمشي خلفهما. يقف عبدو أمام المدفن. اسم العائلة غير محفور في الأعلى كبقية المدافن. غرفة صغيرة من الباطون، يبدو رطباً مقارنة بغيره. ربّما لأنّه بني حديثاً. منذ شهور توكّل نقولا ببنائه. إذ لم يكن هناك مدفن لعائلتنا. اسم أمي على رخامة بيضاء. تاريخ ولادتها وتاريخ وفاتها. أكليل من الزنبق الأبيض موضوع فوق البلاطة، أسماؤنا ثلاثتنا مكتوبة عليه.

بزاقة صغيرة ترسم خطاً فضياً من اللعاب خلفها. يتمتمان خافضي الرأس. نقرفص ثلاثتنا. نقولا يضع يده فوق الرخامة البيضاء. صوته يتهدّج فلا نفهم كلمة «أمّي» يردّدها. يهتزّ جسده كله. يغمر عبدو رأسه. أمسك أنا بذراعه لنمضي. عصفور بريش أحمر عند منقاره يحطّ فوق اسمها تماماً.

موعد طائرتي عند الثانية بعد منتصف الليل. أنطوان سيمكث أسبوعاً آخر.

لم يبقَ كثيرون لغداء جناز الأربعين. مكثت مع أخويّ وأنطوان. مرّ الكاهن لربع ساعة ثمّ انصرف. وضّبت حقائبي.

صدر للمؤلِّفة

1- بورتريه للنسيان، المركز الثقافي العربي، 1994.

2- شتاء مهجور، المركز الثقافي العربي، 1996.

3- بيوت المساء، دار الجمل، 1997.

4- البئر والسماء، المركز الثقافي العربي، 1997.

5- العابر، المركز الثقافي العربي، 1999.

6- بلاد الثلوج، المركز الثقافي العربي، 2001.

7- بيروت 2002، المركز الثقافي العربي، 2003، طبعة ثانية 2007.

8- أيّام باريس، المركز الثقافي العربي، 2005.

رينيه الحايك

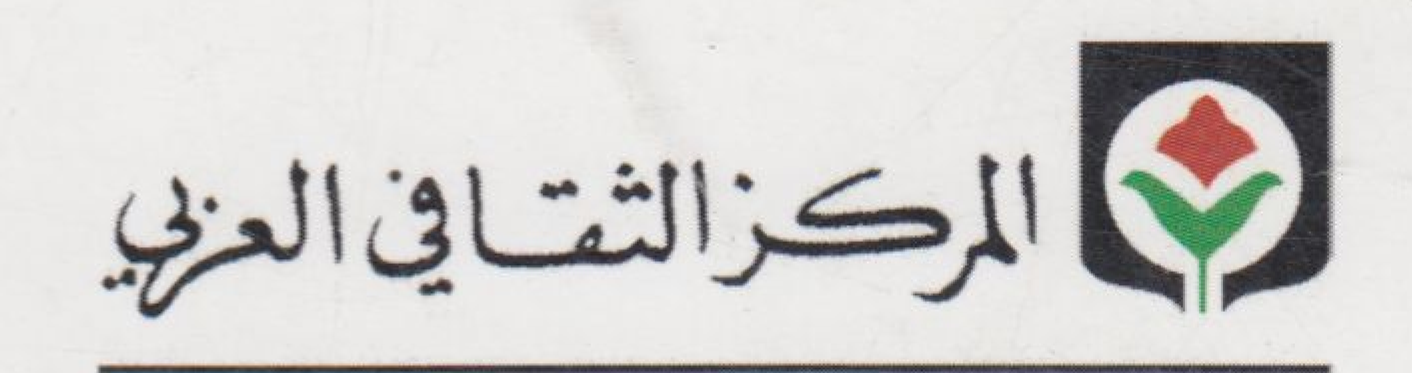
صلاة من أجل العائلة

عندما خُطف أبي صَعُبَ عليّ أن أفهم بالضبط ماذا يعني ذلك. أمي تشرح لي إنه في غرفة يأكل مثلنا وينام ويسمع الأصوات نفسها. لكن لا يسمحون له بالعودة.

"من الذي يغلق عليه الباب؟" أسألها.

لا تجيب. لاحقاً صرت أفكر أنه تركنا ولم يخطفه أحد. اعتدت أن أسير وعيوني تستطلع الوجوه.أريد أن أرى أبي قبل الجميع. أريد أن أركض بكل قوتي، أصعد السلالم في لحظة وأقول: "ماما، أبي رجع". حلمت طويلاً بهذه اللحظة. كبرت فتغيرت الأمور في رأسي...





الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma

ISBN 978-9953-68-267-4

